الفصل الثانى

أرض العم سام

من واشنطن إلى فلوريدا!

الأولى

واشنطن.. مدينة الحجر والرخام!

فى محافظة الفيوم.. كان خبر سقوط «بغداد» كالوقوف أسفل فوهة بركان.. فى انتظار ما سيأتى.. كانت أمسية صادمة.. لكل المشاركين فى دورة المنظمة المصرية لحقوق الإنسان.. لتمكين الصحفى فى قضايا الرأى.. تابعنا على شاشة التليفزيون.. دخول الدبابات الأمريكية.. للعاصمة العزيزة على قلوب العرب «بغداد».. مشهد الوجوم التام فى إبريل 2003.. كان مرتبطا داخلى بشكل وثيق.. مع الرحلة الأولى للعاصمة الأمريكية واشنطن فى مارس 2004.. كل الحنق تجاه الإدارة الأمريكية.. وكل الرغبة كصحفية فى زيارة واجبة لعاصمة العالم فى نظامه الجديد!

1

دعوتى كانت من قبل البنك الدولى.. إحدى المنظمات التابعة للأمم المتحدة.. لحضور ورشة عمل حول دور البنك فى المنطقة العربية.. موجهة

لصحفيى بعض دول المنطقة.. كنت ممثلة لبلدى ضمن سبعة ممثلين لبلدان: مصر والسعودية والأردن وسوريا ولبنان والكويت والمغرب.. حملت تأشيرة دبلوماسية خاصة.. دون الذهاب لمقر السفارة الأمريكية.. المدججة بكل وسائل الحماية على نيل القاهرة.. فكرة الورشة وبرنامجها كان خارجا عن سياق عمل البنك.. عندما اطلعت عليه قبل السفر.. اللهم إلا بعض المحاضرات الاقتصادية.. زيارة البنتاجون.. وبعض الصحف.. ومنظمات مجتمع مدنى.. أعضاء فى الكونجرس فى مقره.. وكانت كل المخاطبات الخاصة بالزيارة تأتينى موقعة باسم «شاها ريزا».. لم يكن وقتها اسما مألوفا أو معتادا بالنسبة لى.. ولم أكن أعرف من الأساس أنها من أصول عربية.. عندما التقيتها هذا العام.. بنيت انطباعا غير مريحا عنها.. وبعدها بعامين أدركت.. كما أدرك العالم كله.. من تكون «شاها ريزا» التى تسببت فى إقالة «وولفويتز» مهندس عملية غزو العراق.. إبان كان وزيرا للدفاع.. فى الإدارة الأمريكية.. ورئيس البنك الدولى لاحقا.. وأدركت.. وكتبت أيضا وقتها عن دورها قبل ووقت وبعد غزو العراق.. وكتبت بعدها أسأل.. لماذا خرج «وولفويتز» وبقيت «شاها ريزا» فى البنك الدولى؟!

2

على متن الطائرة المغادرة أرض القاهرة إلى فرانكفورت.. كنت أقاوم شعورا بالألم الخفيف فى جانبى الأيمن.. فلم تكن قد مضت أيام قليلة على إجرائى جراحة لاستئصال المرارة.. ولأربع ساعات.. مددت قدمى أحاول جمع أفكارى حول تلك العاصمة.. التى تشبه النداهة فى لهث أغلب البشر

لزيارتها.. لم يكن لدى هذا اللهث.. لكن كان بداخلى فضول إنسانيا إنسانى صحفى مزدوج.. لرؤية المكان والبشر.. ولسبع ساعات أخرى من فرانكفورت إلى واشنطن.. كان خيط الأفكار متواصلا بكثافة.. أحاول تهيئة نفسى لقبول كل الإجراءات.. التى نبهونى لها فى القاهرة.. فكرة التفتيش الذاتى الدقيق.. كانت فكرة مبهمة بالنسبة لى.. أى دقة قد تكون فى هذا التفتيش.. وأى إهانة يمكن أن أشعر بها إذا كانت تلك «الدقة» متجاوزة.. وأى قدرة قد أستطيعها على ضبط النفس؟!

ووصلت العاصمة الأمريكية أخيرا.. مندهشة من الغيوم والأمطار وبرودة الطقس فى منتصف مارس.. كان مقرى فى فندق بسيط فى قلب العاصمة.. «لومباردى».. شكل كلاسيكى للفنادق الأمريكية.. البنيان الطوبى الأحمر القانى.. والنوافذ التى تفتح لأعلى.. كان على شارع بنسلفانيا أفينيو.. على بعد خطوات من مقرى البنك الدولى.. ببنايتيه المتقابلتين فى شارعين جانبيين متواجهين لبعضهما البعض.. ومن نافذته كنت أواجه مباشرة مقر الرئيس الأمريكى شخصيا.. البيت الأبيض.. وطوال 9 أيام هى مدة إقامتى.. كان أول ما تقع عليه عيناى صباحا.. عندما أفتح النافذة.. هو هذا البيت الحجرى المطلى بالجير.. على عكس كل البنايات المهمة للأمريكيين.. والمبنية بالرخام.. فى مدينة الرمز.. واشنطن دى سى.. كان مقر الرئيس بناء حجريا.. فهو ليس للخلود.. ومن يدخله يعلم أن دخوله مؤقت مرهون بمدى زمنى.. وكان هذا أول تعارف بينى وبين فلسفة الحياة الأمريكية.. كل شىء إلى زوال.. إلا التاريخ!

3

بنسلفانيا أفينيو.. إن دبليو.. 1600.. مقر البيت الأبيض.. الذى صممه المهندس «جيمس هوبن».. وبدأ بناؤه عام 1792 بأحجار تم استيرادها من إسكتلندا.. أشرف على بنائه الرئيس «جورج واشنطن».. ولم يعش فيه.. وأول من قطنه ثانى الرؤساء «جون آدامز» عام 1796.. أحرق الجنود البريطانيون البيت الأبيض فى 24 أغسطس 1814 .. أثناء الحرب بين الولايات المتحدة وبريطانيا..ولم يتبق منه إلا الجدران الخارجية.. استغرق إعادة بنائه 3 سنوات..و انتقل إليه الرئيس «جيمس مونرو « بعد تجديده جزئيا في أكتوبر عام 1817.. نقل بعدها الرئيس «ثيودور روزفلت» كل مكاتبه إلى الجناح الغربى فى المبنى الجديد عام 1901.. وهو الذى سماه البيت الأبيض.. وبعد 8 سنوات أنشأ الرئيس «وليام هووارد» أول مكتب بيضاوى..

فى 2004.. كانت حالة الغليان تجاه غزو العراق واضحة فى الشارع الأمريكى.. وكانت العاصمة الأمريكية.. هى المدينة النموذجية – حسب المشاهدة الأولى –لحرية التعبير.. تجولت فى الحديقة الخارجية للبيت الأبيض مرارا.. وعرفت أنه يفتح أبوابه لزيارات المواطنين بحسب مواعيد ثابتة ومعروفة.. وفى تلك الحديقة كانت إمرأة عجوز.. تقيم بأمتعتها.. فيما يشبه خيمة الأخ العقيد «القذافى» – مع الفارق طبعا – رافعة لافتة على أحد الاعمدة الخشبية القصيرة.. تحمل عبارة «عار عليك يا بوش.. الحرب فى العراق».. كان مدهشا بالنسبة لى أن تؤمن تلك المرأة –على رقة حالها – بفكر تحرص على التعبير عنه بجرأة.. فى مواجهة رئيس أكبر دولة فى العالم.. وعلى مرأى ومسمع من الحراس.. دون أن يتعرض لها بشر.. قالوا لى وقتها.. إنها تفترش هذه الخيمة منذ عام.. منذ بدأت الحرب فى العراق 2003.. وصلت

العاصمة بعد ظهر الأحد.. حيث لا عمل.. وحيث كل المحال التجارية مغلقة.. فأمضيت يومى حتى هبط الليل.. أحاول استكشاف المربع المحيط بالفندق.. فقط.. خوفا من أن أضل الطريق فى العاصمة الهادئة.. كان يومى التالى مزدحما.. فآثرت النوم باكرا..

4

فى الدور العاشر من مقر البنك الدولى.. وبعد إجراءات دقيقة لاستخراج كارنيه الدخول فى اليوم الأول.. كانت القاعة التى أمضينا 8 أيام نستقبل فيها محاضرينا.. فى الاقتصاد ونشاطات البنك فى المنطقة.. وكانت المرة الاولى التى التقى فيها «شاها ريزا».. كانت رئيسة قطاع العلاقات الخارجية بمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا .. القطاع المعنى بالتواصل مع الإعلاميين.. كانت امرأة قاسية الملامح.. متوترة وعصبية طوال الوقت.. تدير أمور قطاعها مع موظفيها من العرب بحدة.. على مرأى ومسمع منا.. نحن الضيوف السبعة للبنك! تكره الحديث بالعربية.. وهو أمر اكتشفته بعد 4 أيام.. حين قال لى أحد موظفيها: «لا تحدثيها بالعربية فهى لا تحب».. وكنت أعتقد أنها لا تجيدها.. كانت ليبية.. تشيع أنها أردنية.. تزوجت فى فترة سابقة.. وقت إقامتها فى بريطانيا من تركى اسمه «على ريزا»..وأخذت اسمه.. ثم طلقت منه.. و «ريزا» فى التركية هى «رضا» فى العربية.. لكن اللسان التركى والفارسى ينطق حرف «ض».. «ظ».. فتصبح «رضا».. «رظا» التى يتم تحريفها فى الإنجليزية إلى «ريزا».. «شاها» كانت تكره التعامل مع العرب.. ولا تقبل أى نقد للولايات المتحدة.. رغم رفضها حمل جنسيتها.. لسبب وجيه جدا ليس التمسك بعربيتها.. كانت لا تريد الخضوع للمعاملة المالية كمواطن.. يخصم نصف دخله تقريبا كضرائب!

بعدها بعامين عرفت وتابعت عن قرب.. ومن داخل البنك الدولى نفسه.. أنها ذهبت إلى العراق فى مهمة خاصة مع وزارة الخارجية الأمريكية.. وهو ما يخالف شروط عملها فى مؤسسة تابعة للأمم المتحدة فى بداية أيام الغزو الأمريكى للعراق.. ووقت أن كان «صديقها» وولفويتز وزيرا للدفاع.. وعندما عين رئيسا للبنك الدولى.. حصلت على ترقيات ومكافآت دون وجه حق.. وهو الأمر الذى أدى إلى ثورة داخل البنك من كل موظفيه فى بقاع العالم المختلفة.. فى سابقة لم تحدث فى تاريخه.. والتى أجبرت بدورها «وولفويتز» على الاستقالة فى يونيو من العام 2006.. وقد قمت بمتابعة تفاصيل التفاصيل للأمر برمته.. حتى جلسة الإقالة أو الاستقالة التى استمرت من الواحدة ظهرا.. حتى السادسة مساء.. بتوقيت واشنطن - فارق 6 ساعات عن القاهرة.. وكتبت فى الأمر منذ بدايته العديد من المرات.. حتى اختتمته بتقرير نهائى عن الجلسة النهائية العاصفة.. التى انتهت بخروج «وولفويتز».. وبقاء «شاها».. حتى يومنا هذا!

5

واشنطن العاصمة.. المقرونة دائمة بحرفى «دى سى».. والتى ترمز إلى.. District of Columbia.. أو مقاطعة «كولومبيا».. وهى مقاطعة اتحادية «فيدرالية» تحت سلطة الحكومة الفيدرالية مباشرة.. لا تتبع أي ولاية من الولايات.. حملت اسم «واشنطن» تيمنا بالقائد العسكرى للثورة الأمريكية.. وأول رئيس للولايات المتحدة.. كانت تسمى قديما المدينة الفيدرالية.. لعدم الخلط بينها وبين ولاية «واشنطن».. فى أقصى الشمال الغربى للولايات

المتحدة.. على ساحل المحيط الهادى.. دى سى – كما يحلو للبعض اختصارها – تقع فى الشرق.. على الحدود بين ولايتى ميريلاند وفيرجينيا.. مجلسها يضم 13 عضوا.. وغير ممثلة فى الكونجرس الفيدرالى.. لكنها تملك 3 أصوات فى الانتخابات الرئاسية.. ومندوب واحد عن مقاطعة كولومبيا فى الكونجرس.. له حق التشاور فقط دون التصويت..

فى بهو الكونجرس.. كان استقبالنا بحجم فخامة المكان وهيبته.. فهو المكان الذى يشارك الرئيس الأمريكى فى تعيين كبار الموظفين والقضاة.. يملك الحق فى الاعتراض على التعيينات.. يقدم ويناقش ويصوت على القوانين.. ويملك أيضا صلاحيات تعديل الدستور.. وهو جزء من أحد أفرع الحكومة الفيدرالية الأمريكية الثلاثة: التشريعى بمجلسيه الشيوخ والنواب.. والتنفيذى الذى يعد أوسعها ويرأسه رئيس الجمهورية.. والقضائى .. الكونجرس أو مجلس النواب يملك سلطات لا يشاركه فيها مجلس الشيوخ.. توجيه الاتهامات لعزل الرئيس وقضاة المحكمة العليا.. مشروعات القوانين الخاصة بالواردات.. اختيار رئيس الجمهورية فى الحالات التى لا يحصل فيها أى مرشح على أغلبية أصوات هيئة الناخبين.. التقينا فى هذا المكان الذى يحظى بتقدير كل الأمريكيين.. بأحد أعضاء الكونجرس.. الذى ينحدر من أصول هندية.. بحسب خريطة ملامحه ولونه ولكنته التى لا تخطئهم جميعا عين! كان لقاء لعشر دقائق.. بدا الرجل باردا.. أو متعجلا.. أو مشغولا.. لا أدرى فقد اختلفت انطباعاتنا جميعا – نحن السبعة – لكننا توقفنا عند بخل الرجل.. والذى فهمنا فيما بعد أنه جزء من الطبيعة الأمريكية.. كنا فى انتظاره فى إحدى

القاعات.. فدخل علينا وهو يحمل فى يده كوبا من القهوة الأمريكية – وقتها كنت أكره مذاقها وبعدها عشقتها بالحليب – ولم يبادر بدعوة أى منا على فنجان مشابه.. بعدها فهمنا أن السلوك العربى إياه لا معنى له فى هذا الوطن.. إذا رغبت فى احتساء أى شىء عليك أن تطلب.. إذا لم تطلب فأنت لا تريد.. حتى لو كنت ضيفا فى رحاب شخص مهم!

تحدث الرجل طوال العشر دقائق بلكنة غير مفهومة.. ومضت الدقائق العشر.. فلم يكن هناك وقت لأى سؤال منا.. وخرجنا يسأل بعضنا البعض: هل قال الرجل شيئا ذا بال؟! بدا الأمر كما لو أنه كان مطلوبا فقط أن ندخل المكان ونخرج منه.. فيسجل فى البرنامج أنه قد تم لقاء فى الكونجرس!

6

تحولت قفشات «حمدان الحاج» الصحفى بالدستور الأردنية.. تعليقا على التقارب بينى وبين السعودية «عبير مشخص» من عرب نيوز الإنجليزية.. و «قلقه تجاه التحرك المصرى السعودى داخل العاصمة الأمريكية»!! إلى غيظ مكتوم تجاه السيدة «ريزا» التى كما لو كانت متحفزة لمنعه من التعليق أو الكلام فى أى جلسة.. وما لبث هذا الحنق أن تحول إلى تحالف جمعنا نحن الثلاثة.. فكتبنا فى تقريرا التقييم النهائى للروشة.. أسوأ شهادة يمكن أن تقابلها فى حياتها.. راضين تماما بما فعلت أيدينا.. فى هذه المرة كانت الفائدة العظمى التى عدت بها من هذه الزيارة.. والانطباعة الأولى دائما تدوم – بحسب

أحد إعلانات العطور! – أن المواطن الأمريكى الذى التقيته فى الشارع.. واشتريت منه احتياجاتى فى المحال التجارية مرات عدة.. وجلست إلى جواره على المقاعد الرخامية فى المتنزهات العامة.. فتجاذبت أطراف الحديث.. شأن أى حديث يمكن أن يدور بين غرباء.. يجمعهما مقعد على الطريق.. أو وسيلة مواصلات.. فى وطنى.. هذا المواطن شديد الطيبة.. شديد البساطة.. شديد الحنق على إدارة بلاده فى تلك المرحلة.. مواطن محلى بالدرجة الأولى.. معزول عن العالم جغرافيا وإنسانيا بحكم موقعه ونظام حياته.. فرضت عليه أحداث الشرق الأوسط.. عبر محطاته التليفزيونية المختلفة.. فصارت حرب العراق شأن محلى جدا بالنسبة له.. لأن له قريبا أو صديقا أو جارا يشارك فى هذه الحرب.. يفرق بعفوية بين مصر كدولة ذات تاريخ قديم يعنى له الكثير حتى لو لم يزرها.. وبين باقى البلدان العربية.. ودول الشرق الأوسط.. لها كل التقدير.. حتى هؤلاء الذين يسمونهم «هومليس» أى بلا سكن.. أى مواطنى الشوارع من المشردين.. وهؤلاء كانوا يستقرون بكل بساطة – بعربتهم التى تشبه عربة الطفل الرضيع فى حجم عائلى! – أما البيت الأبيض.. نعم فى أمريكا بشر يحصلون على طعامهم من سلة القمامة.. وكثيرا بحكم مرورنا المتكرر فى هذه المنطقة.. ما طلبوا سيجارة من أحد المدخنين معنا.. وإذا أعطاه اثنين يصر على واحدة فقط.. بشر.. بسطاء.. مظلومون.. هؤلاء هم الأمريكيون الذين شاهدتهم.. وحادثتهم وشاركتهم الضحكات.. وعدت إلى وطنى.. مقدرة لهذا الشعب.. الذى دفع ثمنا باهظا للحرية.. والقيم الإنسانية.. ولا استعداد لديه للمساومة عليها..

7

مابين الزيارة الأولى والثانية كان الفارق 4 سنوات.. كانت الكثير من الأشياء قد تغيرت فى وطن يتغير باستمرار.. فى يونيو 2008.. كنت ضيفة هذه المرة على وزارة الخارجية الأمريكية.. ضمن وفد يمثل 7 دول عربية.. فى برنامجها الشهير «الزائر الدولى المقيم».. وفى جولة شملت 3 مناطق.. كانت البداية فى «واشنطن دى سى «.. فكانت دى سى مرة أخرى بالنسبة لى شيئا مختلفا.. كان لدى رغبة ملحة فى رؤية الأماكن..

فى المربع الذى يضم المحكمة العليا.. والنصب التذكارى لأبراهام لينكولن وعلى مرمى البصر وفى خط مستقيم.. تمثال جيفرسون.. تواجهه المسلة الأمريكية.. كنت أقف وقد تحولت إلى أذن تصغى للمرشدة السياحية العربية التى صحبتنا فى هذه الجولة.. «دى سى» مدينة الرموز.. النصب التذكارى لأبراهام لنكولن.. الذى بنى بين عامى 1915 و 1921 لتكريم ذكراه .. ملىء بهذه الرموز.. مواجها لمبنى الكونجرس.. استمرت عمليات التصميم والبناء وقتا طويلا بسبب الحرب العالمية الأولى.. تلك الأرض التى نقف عليها.. حيث بنى التمثال.. كانت مستنقعا.. أشرف عليه المهندس «هنرى باكون» والنحات «دانيال شيستر فرينش» والرسام الجدارى «جولس غيرين».. رخام «كولورادو « وحجر «إنديانا» شكلا تلك اللوحة المجسمة البديعة.. افتتحه الرئيس الأمريكى «وارن هاردنج» عام 1922.. بحضور «روبرت تود لنكولن» آخر «أبراهام لنكولن» من الأحياء.. النصب نفسه

كالمعبد الإغريقى التقليدى.. محاطا بستة وثلاثين عمودا ضخما يصل ارتفاع كل منها إلى عشرة أمتار.. يرمز كل عمود لولاية من الولاية الست والثلاثين التى شكلت الولايات المتحدة الأمريكية وقتها.. أعلى كل عمود دون اسم ولاية.. وعلى جدرانه الخارجية سجلت أسماء الولايات الثمانى والأربعين.. أما خلف قاعدة التمثال فقد كتب هذا الإهداء: «فى هذا المعبد.. كما فى قلوب الشعب.. لذلك الذى أنقذ الاتحاد.. ذكرى أبراهام لنكولن.. تكرس للأبد».. هو الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية.. من 1861 إلى 1865.. أهم رؤسائها على الإطلاق.. قامت فى عهده الحرب الأهلية الأمريكية.. بعد انفصال إحدى عشرة ولاية و إعلانها تكوين دولة مستقلة باسم الولايات الكونفدرالية الأمريكية.. أعاد لينكولن الولايات المنفصلة للحكم المركزى بقوة السلاح.. ألغى الرق فى أمريكا عام 1863.. ومات مقتولا عام 1865.. وفى نفس المكان الذى نقف فيه.. نطق «مارتن لوثر كينج» بعبارته الشهيرة: «عندى حلم» فى أغسطس 1963.. بعد إلغاء لينكولن للرق بمائة عام!

8

وبعدها بحوالى 45 عاما.. «كان لدى حلم» فى يونيو 2008 أن يفوز الشاب.. الذى أثار ذهول العالم «باراك حسين أوباما».. برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية.. فى هذا الوقت لم يكن واضحا تماما.. إلى أين ستتجه الكرة.. كان الملعب واسعا.. والأمنيات ضخمة.. من الجميع.. لكن المفاجآت كانت متوقعة أيضا.. «باراك أوباما».. خلطة إفريقية أمريكية لاتينية آسيوية.. صعب

أن تتكرر.. كنا نسأل عن المحكمة العليا.. شاخصين بعيوننا إلى المبنى الرخامى الأبيض المهيب.. قالت المرشدة: بحكم الدستور.. يعين قضاتها التسعة مدى الحياة.. فلا يمكن إقالتهم من مناصبهم إلا بتوجيه التهم إليهم وإدانتهم على يد الكونجرس.. والتهم هى: الخيانة، أو الرشوة، أو جرائم كبرى أو ارتكاب جنحة قانونية.. لا يستطيع الرئيس ولا الكونجرس.. خفض مخصصاتهم ورواتبهم طالما بقوا فى مناصبهم.. ثم اتجهت للمسلة الأمريكية تشرح فكرتها.. كان يدور فى ذهنى «أوباما».. فتلك مسلة ليست منقولة من مصر.. فى قلب منطقة ذات دلالة تاريخية مهمة لدى الأمريكيين.. تتعامد فى خط مستقيم مع المحكمة العليا.. رخامية المبنى من ناحية.. والنصب التذكارى «لأبراهام لينكولن» من ناحية أخرى.. تلك المسلة بناها الأمريكيون على غرار تلك الفرعونية القديمة.. الرمز فيها تقول: إذا كانت الحضارة الفرعونية قد عاشت للآن.. فإن الحضارة الأمريكية ستعيش مثلها لآلاف السنين القادمة.. إذا كان الأمريكيون لا يملكون تاريخا.. لآلاف السنين الماضية.. فسوف يملكون تاريخا لآلاف السنين القادمة.. وتلك هى العقدة فى تكوينة الشخصية الأمريكية كلها.. ذاك هو «أوباما».. المؤمن بأن التاريخ يصنعه البشر.. بإنسانيتهم واحترامهم للبشر فى أى بقعة.. ومن أى عرق.. وبأى لون

الثانية

صحافة البنتاجون.. ومنتجع جوانتانامو!

هذه المرة.. صيف 2008.. عندما دخلت مبنى البنتاجون.. وزارة الدفاع الأمريكية.. أذكر جيدا تفاصيله.. بخلاف المرة السابقة فى 2004.. فقد أمضينا حوالى 3 ساعات داخل المبنى الصامت من الداخل كما الخارج.. رغم كل هذا الزحام من الموظفين والعسكريين.. داخل هذا المبنى.. كان الخيط الذى امتد طوال الرحلة بين الصحفيين السبعة من: مصر والسعودية واليمن والأردن وقطر وليبيا وتونس.. والعسكريين الأمريكيين فى البنتاجون وغيره.. فى البنتاجون.. كان الكذب بواح.. وكانت أسئلتنا بلا إجابة.. وبعدها التقينا بخبراء فى مراكز بحثية وصحفيين أمريكيين بعضهم يهود.. فاكتشفنا أن أمريكا العظيمة كانت كاذبة!

1

داخل مبنى البنتاجون.. فى الجناح الذى تم تجديده بعد تدميره فى أحداث 11 سبتمبر.... دخلنا إحدى القاعات فكان تماما كالدخول إلى ثلاجة عملاقة

من ثلاجات أسواق الخضار! كان فى انتظارنا أحد الضباط الأمريكيين بقسم المعتقلين فى «منتجع».. أقصد معتقل «جوانتانامو «.. عامى 2004 و2005 قبل أن يتقاعد.. عرف نفسه بأنه «مشرف إدارى».. وهو تعريف لم يعن لنا سوى أن اللعبة الشهيرة قد بدأت.. فالصفة الإدارية تحميه من أى سؤال يتم توجيهه منا.. وأصر على أن نتعهد بعدم ذكر اسمه!

كان مقتنعا تماما بما جرى فى أفغانستان.. الدولة الموقعة على اتفاقية جنيف بشأن معاملة أسرى الحرب.. و «طالبان» ليست جزءا من هذه الاتفاقية ولا «القاعدة» لذا لم يتم التعامل معهما بقوانين أسرى الحرب!! فعملية أفغانستان التى بدأت فى أكتوبر 2001.. بدأت معها أكبر عملية للقبض على الآلاف.. وترحيلهم إلى ميناء جوانتانامو.. وفى عام 2002 كان عدد المعتقلين 800 شخص بقى منهم الآن 270 شخص!! كتمت ضحكة مخلوطة بحنق عندما قال: « لم يكن هناك تعذيب على الإطلاق فى جوانتانامو الأمر لا يعدو دعاية إعلامية مغرضة»!!

ثم أصبح العرض كوميديا صارخة.. عندما بدأ الشرح على شاشة عرض.. فخامة البناء والتأثيث والإضاءة: «معسكر 4 هو أميزها.. ثم معسكر 6 الذى تم افتتاحه مؤخرا».. لم يعرض علينا صور عنابر 1 و2 و3 و5.. ولا الهدف من فتح معسكر جديد إذا كانت النية الإفراج عن الجميع! « يتناول المعتقل 3 وجبات يوميا.. من الطعام الحلال.. يختار يوميا من 6 أصناف من الأطعمة.. «منيو مثل الفنادق».. ألم أقل لكم منتجع 5 نجوم؟!!

إدارة المعتقل تقدس حرية الفرد «فلا تعرض المعتقلين لفضول الصحفيين وكاميرات المصورين !! تلقى هؤلاء المعتقلين حوالى 27 ألف 663 رسالة من

ذويهم مكتوبة ب13 لغة.. والمجال مفتوح أمامهم لإجراء مكالمات تليفونية بحسب رغبتهم».. لذا فما نشرته الصحافة أو منظمات حقوقية حول قطعهم عن العالم إنما هو محض افتراء من كل الأطراف!! «ملاعب مفتوحة لكرة القدم لمدة ساعتين على الأقل يوميا.. العديد من نسخ المصحف الشريف.. الاهتمام بمواعيد الآذان للصلاة 5 مرات يوميا بوضع علامة الصلاة فى كل الطرقات حتى تمتنع دوريات المرور أثناء الصلاة»!!

عندما سألنا جميعا عن وضعية «سامى الحاج» مصور الجزيرة – الذى أفرج عنه لاحقا – كانت الإجابة: «ليس لدى معلومات»!!

2

فى الولايات المتحدة الأمريكية.. اتهمت الإدارة الأمريكية صحافتها وقتها بالكذب مرارا وتكرارا.. والحقيقة أن الصحافة لم تكذب.. كل ما فعلته هو نشر اعترافات قادة هذه الإدارة بكذبهم على الشعب الأمريكى منذ عام 2001.. حتى المحاولة التى أعتقد أنها ذكية عند غزو العراق.. بإصطحاب الصحفيين على طائرات حربية.. لم تلبث أن بدت بلهاء.. لأن هؤلاء الصحفيين أنفسهم هم من نشروا فيما بعد انتهاكات «أبو غريب» و «جوانتانامو «.. لا الساسة يهدأون.. ولا الصحفيون.. تمتد حبال الشك وعدم الثقة المتبادلة.. ولا يكف كلا الطرفين عن ممارسة نفس اللعبة.. التى يدركها جيدا كل بشر على سطح الكرة الأرضية.. «شد الحبل».. أحد الذين فطنوا للعبة وقت الحرب على العراق كان د.»مارك فلدشتاين».. أحد أساتذة الإعلام المتميزين ومدير مشروع التاريخ الشفهى للصحافة بكلية الإعلام جامعة «جورج تاون».. بواشنطن.. تنقل د.»فلدشتاين» طوال 20 عاما كمراسل ومحقق

تليفزيونى فى محطات: «سى ان ان».. شبكة «ايه بى سى» الإخبارية..وشبكة «ان بى سى».. حصل خلال هذه الرحلة على خمسين جائزة فى مجال العمل الصحفى قال لى: «كلما ابتعدت عن الصورة استطعت رؤية الحقيقة كاملة» .. فتوسيع دائرة الرؤية يمنحك زاوية أفضل دائما لعناصر جديدة تضيف لما تود رصده.. الصحافة كانت عمودا من أعمدة الدولة.. تم تعديل البند الأول من الدستور الأمريكى لحمايتها.. لم تكن مستقلة طوال المائتى عام الماضية.. لأن تمويلها كان يأتى عن طريق الحزبين الموجودين وقتها.. لكن مع بدايات القرن الماضى دخلت الإعلانات حلبة السباق.. وهو ما دفع فى طريق تحريرها تماما.. ومازالت تلك الصورة موجودة للأن رغم الاختلاف عليها.. أما الإعلام الحكومى فهو موجه.. لا يسمح له بالبث فى الداخل.. فلا يشاهده الأمريكيون مثل «راديو سوا» و «صوت أمريكا» و «الحرة».. إعلام هدفه تحسين صورة أمريكا فى الخارج.. وهو إعلام لم يؤت الثمار حتى الآن..

3

«فى الكوارث أو الحروب تتضائل الحرية».. الولايات المتحدة شرعت قوانين جديدة تقيد حرية الصحافة بعد حربى أفغانستان والعراق.. الإعلام الأمريكى فشل تماما فى تغطية الحرب فى العراق منذ البداية.. منذ اللحظة التى بدأت فيها الطبول تدق إعلانا للحرب.. اعتمد الصحفيون مبدأ الاستسهال والميل فقط لمصادر حكومية رسمية فى التغطية أو للحصول على الأخبار.. وهذه مأساة.. فلم يكن هناك انتقاد أو تحليل أو استقصاء للأخبار أو المعلومات.. تم لى عنق الحقيقة بوصم صدام حسين بتمويل القاعدة.. فعمل الإعلام الأمريكى فى اتجاه واحد.. قال لى فلدشتاين:

«عندما أحلل ما نشر فى الصحف فى هذه الفترة أجده صحافة مشوهة تملك عينا واحدة».. فيما بعد ظهر أن هذا كله لم يكن حقيقيا.. لم تكن هناك أسلحة دمار شامل.. ولم يكن هناك اتصال بالقاعدة.. كان إعلاما كاذبا.. الصحف الأمريكية استمرت فترة أطول قبل أن تدرك مافعلت بنفسها..

فى فترة الحرب تلك لمعت مصادر فى البنتاجون والبيت الأبيض بشكل مبالغ فيه.. لكثرة ماظهرت فى وسائل الإعلام.. خطورة الأمر فى أن مراسلى هذه الجهات الرسمية من الصحفيين يبنون بعد فترة من الوقت علاقة قوية بهؤلاء الرسميين.. تصل فى أحيان كثيرة إلى الصداقة.. فتصبح تصريحاتهم محل للثقة.. أو يكون هناك حرج فى استقصائها من أطراف أخرى.. أو يكون هناك استفادة بشكل أو بآخر من هؤلاء.. ولم يكن هذا سمة للصحافة الأمريكية بهذا الشكل من قبل!

الصحافة الأمريكية غطت تلك الحرب مرفرفة بالعلم الأمريكى.. وتلك كانت مأساة.. انتهت الصورة الذهنية لدى الكثيرين فى الخارج عن أمريكا راعية الحرية.. ظهرت فى ثوب عنصرى.. نقلت عن رئيسها ألفاظا مثل «الحرب الصليبية الجديدة».. وازدراء الأديان الأخرى.. فكان هذا تسميما متعمدا للشارع الأمريكى.. و «تسميم الصحافة» هو عنوان كتاب «فلدشتاين» الذى كان ينوى إصداره شهر يوليو 2008.. يحكى فيه عن الصحافة.. منذ حكم «نيكسون» والمعركة الشهيرة بينه وبين الصحافة.. ومرحلة الحرب العالمية الثانية حتى السبعينيات.. وهى فترة حساسة وحرجة فى التاريخ الأمريكى.. كما يرى «د.فلدشتاين».. لأنها خلقت العلاقة المحددة والواضحة بين الصحفيين والسياسيين على هذه الأرض.. والتى امتلك خلالها الصحفيون اليد العليا.. الصحفيون الآن وضعهم معكوس!

«فلدشتاين» تلقى 300 خطاب كراهية وتهديد من مجموعات الضغط اليهودية عندما كان فى «سى ان ان».. لأنه قدم فيلما تسجيليا عن الدور الذى تمارسه مجموعات الضغط هذه فى السياسة وعلى الصحفيين أيضا.. يحمل وجهة نظر واضحة عندما يقول: «أنا ديمقراطى ليبرالى.. أمريكى.. يهودى.. مؤمن بدولة فلسطينية.. لكنى مؤمن أيضا بحق إسرائيل فى الوجود.. مؤمن بحق عودة الفلسطينيين فى الخارج.. لكنى أرى حجم الكراهية على المدى البعيد فى هذه المنطقة.. الدولة الفلسطينية يجب أن تصبح حقيقة واقعة.. دولة ذات حدود.. لا مجموعة مدن متناثرة.. لا يمكن قيام هذا الحائط الذى أقامته إسرائيل.. فحائط برلين تم هدمه.. لن يستقيم الأمر هكذا أبدا.. لست سياسيا فلا أدرى إن كان الأفضل أن يتم هذا تحت مظلة دولية الأمم لمتحدة مثلا أم ماذا لا أدرى.. المهم أن نبدأ قبل أن تفاجئنا قنبلة ذرية جديدة»..

4

أمريكا التى تعترف بالكذب على العالم كله.. لا تجرؤ على الكذب على أبنائها وصغارها.. فتحكى فى مناهج الدراسة الابتدائية ما فعله المهاجرون بالسكان الأصليين.. أمريكا التى تكفر عن ذنوبها القديمة بالاحتفاظ بالكثير من أسماء الولايات والشوارع من اللغة الأصلية للهنود الحمر.. وبين نهر «أناكوستيا» أو «نوكوتاتونوك» إحدى قبائل الهنود الحمر السكان الأصليين.. ونهر «بوتوماك» أو «باتواموك» ومعناها تجارة.. أنشئت مدينة «واشنطن» بقرار من مجلس النواب الأمريكى .. بعد تنازل كل من ولايتى «ميريلاند» و «فرجينيا» عن جزء من أرضهما لإنشاء هذه المدينة عام 1792.. وبعد أكثر من 200 عام.. مازالت المدينة التى صممها المهندس المعمارى الفرنسى الأمريكى

فيما بعد اللواء «بيير شارل لينفون» تحتفظ ببساطة الروح التى صممت بها.. ومازالت مركزا للحكومة الاتحادية لخمسين ولاية منذ عام 1800..

فى تلك الجولات الطويلة بين شوارع المدينة التى تضم ما يزيد على 150 سفارة.. وأكثر من 20 ألف دبلوماسى مقيمين بشكل دائم .. ومبانى السلطات الثلاث الممثلة للحكومة طبقا للمفهوم الأمريكى: التشريعية والتنفيذية والقضائية.. لم يدهشنى هذا العدد الضخم من الجمعيات والمراكز البحثية والفكرية التى تتكتل فى أماكن بعينها فى العاصمة الهادئة العاصفة.. وطن يضم مليون و80 ألف منظمة خاصة.. مهمتها تثقيف المجتمع فى قضاياه وأموره الملحة.. ومواطنيه على قناعة بأنه ليس على الحكومة أن تأخذ أدوارا إضافية أو زائدة.. وليس عليها أيضا أن تنفرد بالقرار.. أو تقرر نيابة عنهم.. وليس من صلاحياتها أن تضع السياسات للمجتمع.. المطلوب الاستجابة لجهد المجتمع المدنى.. المتمثل فى مجموعات الضغط والمصالح أو «اللوبيست» والجمعيات الأهلية والخاصة.. ففى هذه التجمعات ينظم المواطنون أنفسهم.. ويحددون مطالبهم وأولوياتهم.. ثم يأتى دور الحكومة بعدها لتنفيذ هذه المطالب .. هذه التجمعات تحصل على تبرعات من أفراد أو مؤسسات.. وهو أمر قد يصعب فهمه فى أوطاننا رغم أنها هى التى بدأت العمل التطوعى.. فلم يعد الآن فى قناعاتنا ما يفسر شغف الأمريكيين بالتبرع.. فكرة التطوع بالوقت أو بالجهد أو بالمال.. هى فكرة راسخة فى الوعى الأمريكى.. وأكثر المؤسسات التى سلط عليها الضوء فى فترة الإدارة الحالية للجمهوريين.. ومنذ 8 سنوات.. هى مؤسسات الفكر.. وهو نوع من المراكز البحثية بدأ فى ثلاثينيات القرن الماضى بمركز «بروكلين».. لا تعرفه منطقتنا العربية.. ولا تريد.. ليس كما يخلط البعض مثل مراكز الأبحاث.. إنه نوع من المراكز مهمته تقديم أفكار.. ذات فائدة للإدارة والمواطنين فى ذات الوقت.. مؤسسة أمريكا الجديدة التى

تأسست كمعهد غير ربحى عام 1999 بهدف إفساح المجال لأصوات جديدة تحتل موقع الصدارة فى المشهد الأمريكى العام..

5

«دانيال ليفى» الباحث البريطانى والخبير بأبحاث الشرق الأوسط.. ومدير مشروع آفاق المبادرة السلمية بالمؤسسة.. بعد عام ونصف العام فى هذا المشروع.. يملك رأيا أقرب للواقعية والفهم للتشابك المستعصى فى الشرق الأوسط.. أشد ما يميز هذه المراكز العاملة فى السياسات.. عن غيرها.. أن لديها غالبا منتجا نهائيا توصى باستخدامه من قبل السياسيين.. فهى مراكز نافذة ولديها الاتصال والقدرة على شرح أفكارها للسياسيين وصانعى القرار.. وكثيرا ما تذهب الحكومة بنفسها طواعية لهذه المراكز بحثا عن سند فكرى فى هذه المراكز فيما قد يثير جدلا إذا ما طرح من قبل الحكومة فقط .. من المهم أن يكون لديها آلة لإحداث الصدى لتكرار هذه الآراء على الرأى العام.. لا سيما الإعلام.. لأن الناس فى الغالب لا يستمعون للحكومة أو السياسيين فقط.. ولكن يرغبون فى سماع الخبراء والمؤسسات أيضا..

وأسوأ ماتعانيه هذه المراكز هو أن يتم تجاهلها.. كما يقول «ليفى»: «إذا كان هناك جدل حولك فأنت ناجح بلا شك.. وبغض النظر عن نوع الجدل.. أنت ناجح مبدئيا لأنك أعلنت وجهة نظرك على الشعب.. هذه هى طريقة تفكير وعمل مؤسسات التفكير هذه.. إعلن رأيك.. فليعجب أو يغضب أى أحد.. لكن إعلنه.. وهذا يحدث على كل المستويات فى الحكومة.. والمحافل الإعلامية المختلفة».. 40 خبيرا فى الإدارة الأمريكية فى بداية عهد بوش.. كانوا أصلا يعملون فى مؤسسة أمريكية تسمى «أمريكان انتربرايز» وهى مؤسسة معروفة بميولها اليمينية الجمهورية.. وهى المؤسسة التى صاغت مبكرا مسألة غزو

العراق وأفغانستان.. وهى سياسة يسمونها « الباب الدوار» .. تدخل منه فتدور معه لتجد نفسك خارجا منه مرة ثانية.. المراكز الفكرية فى أمريكا.. بنايات ومكاتب وبشر جالسون يعملون أمام شاشات الكومبيوتر.. عدد كبير منهم كانوا يعملون كموظفين حكوميين يعتبرون أنفسهم الآن فى فترة استراحة عن العمل الحكومى الرسمى الذى عملوه سابقا.. الديمقراطيون الذين خرجوا من الحكومة فى 2000 بعد تولى بوش.. قضوا هذه السنوات الثمانية فى مراكز التفكير.. لكنهم ينتظرون العودة للحكومة لتولى مناصب أخرى.. ثانية.. يحدث هذا على كل المستويات.. فى المناصب العليا والصغيرة.. النظام الأمريكى مثير.. يضم طبقة كبيرة من الكيان البيروقراطى الحكومى معينين سياسيا وأوتوماتيكيا.. يعتبرون أنفسهم خارج الوظيفة إذا تغير الحزب الحاكم.. هى طريقة مختلفة فى بناء الوظائف الحكومية.. الوفود التى تذهب من أمريكا لبلدان الشرق الأوسط ليسوا دائما مسئولين حكوميين.. وإنما من مراكز فكرية.. قد يصبحون بين ليلة وضحاها مسئولين فى الحكومة وقد يعينون فى وزارة الخارجية مثلا فى قسم الشرق الأوسط.. هذه المراكز تستضيف برامج زمالات من الخارج لمدة عام أو اثنين.. لا سيما القادمين من الشرق الأوسط.. واشنطن تستفيد من هذا.. والميل السياسى وارد أيضا.. فهناك معاهد يمينية معروفة بارتباطها بالمحافظين الجدد لا سيما فى السياسة الخارجية مثل: «أمريكان إنتربرايز» و «مركز التراث».. وهناك مؤسسات بحثية أخرى تأخذ جانب الديمقراطيين مثل: «بروكنز» و «مركز التقدم الأمريكى» المائل نوعا نحو الديمقراطيين.. وهناك مؤسسات أخرى تؤمن بعملية البحث فقط والبعد عن الأجندة السياسية والحكومة مثل: «مجلس العلاقات الخارجية» فى نيويورك «مركز الدراسات الاستراتيجية» «معهد السلام الأمريكى».. وفيما عدا هذه المراكز.. يمكن لأى شخص التسجيل كمنظمة أو مركز و تلقى تبرعات معفاة من الضرائب.. فهى تعتبر على نفس الخط مع الجمعيات الأهلية.. والخيرية.. وهى منظمات غير ربحية..

6

فى واشنطن الصيف الماضى.. كانت الصورة شديدة الضبابية.. فيما يتعلق بإيران وسوريا وحماس وحزب الله والقاعدة والإخوان المسلمين والإسلام والإسلاميين..هنا فى واشنطن «كله واحد»!!!!! وهذا اتجاه موجود بين المواطنين والسياسيين أيضا.. التعريف مطلق والفهم أيضا.. وأسوأ ما يضعف القضية العربية هنا هو اليمين المسيحى ووسائل إعلامه! «المسيحية الصهيونية».. تدعم إسرائيل بشكل مطلق.. ليس لأسباب سياسية ولكن لأسباب عقائدية.. تقوم إسرائيل.. فتقوم حرب كبرى.. فينتهى العالم.. ونشهد القيامة.. يأتى المسيح ليقتل اليهود ويخلص العالم.. هذه هى عقيدتهم.. ولهم تأثيرهم..

اللوبى المؤيد لإسرائيل يستخدم نفوذه بكثافة فى الشئون الداخلية.. يؤسس جمعية فى كل حى لمناقشة مشاكله.. يفتح محطات المترو.. يشارك فى المهرجانات الثقافية التى تعقد دائما.. ولديه فاعليات سنوية لدعم إسرائيل.. تجميع الأموال لإسرائيل من غير اليهود..ولأن أغلبية القرارات السياسية لا تصنع على المستوى الفيدرالى.. بل على مستوى الولايات والمدن.. ومن كل 100 دولار ميزانية لولاية من الولايات مثلا .. هناك 8 إلى 10 دولارات فقط من الحكومة الفيدرالية.. أما فيما عدا ذلك فمن 90 إلى 92٪ تمويل محلى.. من الأفراد والمؤسسات الخاصة.. أعضاء هذا اللوبى يملكون علاقات قوية ومتواصلة مع اللجان المختلفة فى الكونجرس ومجلس الشيوخ.. يصدر بيانات يومية عن أى شىء فى الشرق الأوسط.. ولأنهم يعلمون جيدا فإن أعضاء

الكونجرس مطلوب منهم التصويت على الكثير من الأشياء.. فهم يفكرون ويقررون نيابة عنهم.. هذا اللوبى لا ينام فى مقابل لوبى عربى غير موجود..

٦

الجولة فى البنتاجون كانت تفصيلية.. لكن ما بقى منها فى الذاكرة شىء مهم.. فأمريكا التى كذبت على العالم كله فى فترة ما.. وكذبت على شعبها أيضا.. لم تستطع أن تواصل الكذب طويلا.. أمريكا التى رفعت راية الصليب فى الحرب على الإرهاب.. فشحنت شعبها ضد المسلمين.. أدركت أنها داخلة فى نفق لن تخرج منه بسهولة.. فاستدركت.. وعادت خطوات للوراء.. أو هكذا رغبت.. إلى حيث كانت.. وطن لكل العرقيات والأديان.. فى مبنى البنتاجون.. فى الجناح الذى تم تدميره فى 11 سبتمبر.. دخلنا قاعة.. ليست واسعة.. لكنها مصممة بحيث تعطى انطباعا بالاتساع والارتياح.. قاعة للعبادة.. لجميع العاملين بالكونجرس.. فى أحد أركانها بعض سجادات الصلاة الصغيرة.. وفى ركن آخر.. كل الكتب المقدسة متجاورة.. القرآن والإنجيل والتوراة وبعض الكتب الأخرى.. تلك القاعة مفتوحة للجميع طوال الوقت.. وتلك هى أمريكا رغم كل شىء!

يوليو 2008

الثالثة

مدينة نيويورك
زحام ورطوبة وصخب

قادمة من مريلاند.. فى أتوبيس صغير.. طوعا واختيارا.. بديلا عن السفر بالطائرة.. هروبا من إجراءات صعبة ومرهقة فى رحلة قصيرة نوعا.. يشكل فيها السفر بالأتوبيس متعة.. رؤية الغابات والجبال والبشر فى طريق يقطع ولايتين أمريكيتين.. أمر حقا ممتع.. الانتقال من مركز العمليات الخاصة بميريلاند.. إلى مدينة لا تنام.. كما يسمونها «نيويورك».. يشبه الخروج من غرفة بخار إلى طريق رحب ممطر فجأة.. صخب نيويورك فى شارع برودواى وحدائقها البديعة.. أمر ينسيك تماما رطوبة طقسها الخانقة التى تفوق أى منطقة حارة فى الشرق الأوسط.. كل ألوان البشر ينصهرون فى مدينة عالمية الملامح..

1

زحام.. زحام.. زحام.. رطوبة.. رطوبة.. رطوبة.. رطوبة.. هذا أول ما تستقبلك به تلك المدينة الخاصة.. ثم ما تلبث أن تعتاده وتأنسه بمرور الوقت.. وعلى

خلاف مدن أمريكية أخرى.. أميزها العاصمة «واشنطن» دى سى.. فإن «نيويورك» مدينة حقا لا تنام.. محالها ومتاجرها لا تغلق كما هو معتاد فى أمريكا فى السابعة مساء.. فاتحة أبوابها لما بعد منتصف الليل.. مطاعمها وملاهيها لا تغلق أبوابها طوال ساعات اليوم الأربعة والعشرين.. مكتظة بالبشر طوال ساعات النهار والليل.. مدينة قديمة تعود جذور نشأتها للقرن السادس عشر.. عندما اكتشف «جيوفانى دى فيرازانو « الهولندى ميناء نيو يورك عام 1524.. و فى عام 1624 تأسست أول مستعمرة هولندية « بشراء «بيتر مينويت» جزيرة «مانهاتن» من الهنود الحمر فى نفس العام.. وأسس مستعمرة «نيوامستردام» التى حملت فيما بعد اسم «نيويورك»..

هى المدينة الأكبر والأكثر كثافة سكانية فى مدن الولايات المتحدة.. وأكبر مدن ولاية نيويورك مساحة.. وهى أحد أهم مراكز المال والتجارة فى العالم.. عاصمة الاقتصاد للولايات المتحدة لما تضمه من مقار الشركات والبنوك العالمية.. فيها مقر منظمة الأمم المتحدة و سوق الأوراق المالية مؤشر «الداوجونز» الصناعى.. أكثر عدد من العاملين فى مدينة أمريكية.. حيث توفر المؤسسات الحكومية والصناعية سبعة ملايين وظيفة.. منها ثلاثة ملايين وثلث مليون لعاملين يقطنون داخل المدينة.. والباقى قاطنين فى ضواحيها.. واقتصاد الضواحى يتطور بصورة مطردة منذ عام 1940 .. نتيجة لانتشار الطرق وزيادة القوى العاملة..

تحتل «نيويورك» المرتبة الثالثة بعد «لوس أنجلوس» و «شيكاغو «.. من حيث النشاط الصناعى.. ففيها 17 ألف مصنع تعمل فى مجال الملابس.. وتنتج سدس إنتاج الولايات المتحدة من الطباعة والنشر.. كما تنتج الأغذية والمواد

الكيميائية.. والأثاث والورق والمنسوجات.. يساعدها ميناء من أكبر الموانئ التى تعمل فى مجال الاستيراد والتصدير.. ميناء «نيويورك».. حيث يعمل به 200 ألف عامل.. حتى لو كانت هذه المكانة قد تراجعت قليلا بعد فتح موانئ أخرى على البحيرات العظمى ونهر سانت لورنس.. إلا أنها تشكل ضمانة مريحة لكل الصناعات القائمة فى المدينة.. أما شركات المال والتأمين والأسهم والعقارات.. فيعمل بها نحو 495 ألف عامل.. وأشهرها بورصة «نيويورك».. تخدم هذا النشاط الاقتصادى وهذا العدد الضخم من الموظفين والمتعاملين.. شبكة ضخمة من وسائل النقل.. يستخدمها يوميا ثلاثة ملايين ونصف مليون فرد.. أما ما يزيد على 60 محطة للإرسال الإذاعى والتليفزيونى.. فقد جعلت المدينة أكبر مركز للاتصال فى الولايات المتحدة..

2

تلك المدينة التى تضم أحياء شهيرة مثل: «مانهاتن» و « برونكس» و «بروكلين» و «سنترال بارك».. وشارع الفن والثقافة «برودواى» مستقرالعروض المسرحية.. ومستقرى طوال أسبوع فى مدينة النور.. «برودواى».. تعنى «الشارع العريض».. وهو كذلك فعلا.. فازدحامه الشديد المستمر.. يقضى على أى فرصة لشعور الغريب بهذا الاتساع.. وهو أحد أشهر مناطق الثقافة والترفيه فى العالم.. وأشهر شوارع العروض المسرحية والسينمائية والنشاطات الثقافية.. شارع يزوره فى العام فى المتوسط 13 مليون زائر.. تتناثر فيه العديد من قاعات: الفنون التشكيلية والمسارح والموسيقى والمتاحف والجمعيات الثقافية الشهيرة.. ينتسب إليها بعض الشعراء والكتاب

والممثلين والفنانين المشهورين.. أغنياء «برودواى» يدعمون هذا النشاط الثقافى.. ومناخ حرية التعبير وانتشار شركات الإعلان والاتصال ساعدته كثيرا فى الرواج والازدهار..

كانت الفكرة مبهرة فى البداية.. عند مطالعة برنامج الرحلة مسبقا.. ومعرفة مكان الإقامة فى «نيويورك».. شارع «برودواى».. لكن الاستقرار فى شارع يقظ طوال الوقت أمر مرهق للغاية.. وأضواء الإعلانات المرتفعة على جدران الأبراج الضخمة المحيطة.. والموسيقى الإعلانية الصاخبة.. تطاردك داخل الغرفة طوال الوقت.. تفشل معها كل محاولات جذب الستائر السميكة.. أو التأكد من غلق كل النوافذ – مع أنها تكون غالبا مغلقة – ليتصل دائما طوال مدة الإقامة النهار بالليل.. ويصبح الخروج إلى الشارع.. هو أفضل الطرق للتعامل مع حصار تلك الضوضاء.. التى كانت وراء تسميته «الشارع الأبيض العظيم».. الذى بناه مهاجرو هولندا عام 1670.. قبل مائة سنة تقريبا من استقلال أميركا..

وفى الشارع الطويل.. عشرات المسارح التى تعرض أشهر الأعمال فى المسرح الغربى.. يصل عمرها لأكثر من قرن.. تقدم للمشاهد الترفية المضفر فى التراث الغربى الثرى.. بمحاسنه ومساوئه.. هو شارع يختصر حكاية مجتمع ويؤرخ لمشاكله وتطلعاته.. ونادرا ما تجد هذا فى شارع آخر فى العالم.. شارع يقدم روح وطن..

3

روح أميركا فى مسرحياتها وأفلامها وموسيقاها.. روح أمريكا لخصها شارع «برودواى» فى مسارحه: «ونتر» بعرضه «ماما ميا» الشهيرة التى تحكى عن التفكك العائلى وسط الغربيين.. «كالار بيربل» أو اللون القرمزى.. دراما تحار فى تفسير العلاقة بين البيض والسود فى أميركا.. مسرح «امبادسادور» وعرض «شيكاغو «.. كانت مسرحية ثم صارت فيلما ثم عادت مسرحية.. وعلى خشبة «برودهيرست» تعرض مسرحية «لاميزارابلز» أو البؤساء لفكتور هوغو.. وعلى مسرح «فونتان» تعرض «بيوتى آند ذا بيست» الجميلة والوحش منذ 12 عاما.. وكانت فيلما ناجحا من أفلام ديزنى.. التى أنتجت أيضا «ليون ذا كينج» الأسد ملك الغابة.. الذى شاهدته مرارا وتكرارا بصحبة ابنتى.. وعندما دعيت لحضوره.. مسرحية فى برودواى.. قلت لنفسى وأنا فى طريقى للمسرح «ألم يكن أفضل أن يختاروا لنا فيلما للكبار؟!».. كان العرض يعرض للسنة العاشرة على نفس المسرح.. وكانت تذاكره تحجز مقدما قبلها بأشهر طويلة.. وكان المسرح من الخارج بأضوائه ولافتاته النيونية وألوانه الصارخة.. لا توحى أبدا برقى العرض الذى سأشاهده فى الداخل.. ودخلت قاعة العرض.. فانتابتنى رهبة قديمة أذكرها جيدا.. عندما دخلت المسرح القومى المصرى قديما وأنا طفلة فى الثانية عشرة من عمرى.. فخامة تجبرك على الشعور بالرهبة.. وعندما بدأ العرض كان الصمت هو العنوان للمكان.. لا هسيس.. ولا وسوسة.. ولا أى صوت بالمرة.. إلا من ذاك القادم من على خشبة المسرح.. إبهار تام.. بالإضاءة والأداء.. الموسيقى والملابس.. حركة الممثلين والراقصين.. الديكور المتغير بسرعة دون أن تنتبه.. والفكرة شديدة

العمق للقصة التى أنتجتها ديزنى منذ سنوات.. قصة الهنود الحمر.. السكان الأصليين فى أمريكا.. والممثلين الذين تعود أصولهم لتلك القبائل.. بملامحهم المميزة.. ولونهم المميز.. وأدائهم المميز.. ظللت لثلاث ساعات.. تفصلها استراحة مدتها 10 دقائق.. لم أتحرك من مقعدى خلالها.. مشدوهة أفكر بعمق وتركيز.. فى قدرة كاتب هذا النص للمسرح بهذه الطريقة.. أغنية روح الحياة التى يغنيها الملك لابنه.. «انظر للنجوم.. ولا تنظر لأسفل».. فواصل اللوحات دائما أغنيات من تراث الهنود الحمر.. هذا التراث الذى مازالت تعبيراته وألفاظه موجودة فى المجتمع الأمريكى حتى الآن..

4

ليست فقط الكلمات الدارجة التى يستخدمها الناس.. فالصاروخ الشهير «توماهوك».. كلمة من قاموس الهنود الحمر.. معناها فأس يدوى قديم حاد يستخدم للاشتباك فى القتال.. الطائرة الهليكوبتر «الأباتشى».. اسم لأمة من الهنود لها لغة خاصة بها.. ولايات: ميشجن كولورادو يوتا أيداها أوكلاهوما مونتانا.. كلها أسماء لهنود حمر.. الذين يتراوح عددهم بين 3 و 5 ملايين نسمة.. موزعين بين 500 قبيلة.. عقد زعمائهم اتفاقات مع الحكومة الفيدرالية.. قبل أكثر من 150 عاما .. يقضى باعتراف الحكومة بمقاطعات خاصة بهم تعتبر محميات طبيعية.. يحكمونها بشكل مستقل لكن تحت الدستور الأمريكى.. لديهم شرطة خاصة بهم ونظام ضريبى خاص بهم.. صاروا أكثر انفتاحا على المجتمع الامريكى بعد هذه الاتفاقات.. فتوجهوا للمشروعات السياحية.. وسمحوا بافتتاح صالات للمقامرة مثلا.. وكانت فى السابق أمرا

مرفوضا لديهم.. يعيدون صرف أرباح مشروعاتهم تلك على قبائلهم.. بعض هذه القبائل يحكمها شيخ القبيلة.. وبعضها الآخر لديها شكل من الأشكال الديمقراطية يحكمها مجلس قبيلة.. الكثير منهم منخرطون فى الحياة الأمريكية تعرفهم فقط من ملامحهم.. إلا هؤلاء فى المحميات فهم يحيون حياة بدائية بفطرتهم الأولى.. هذه المحميات تتركز فى: نيو مكسيكو وألباما وأوكلاهوما.. لكنهم موجودون بأفرادهم فى نيويورك.. شأن أى طائفة أخرى فى أمريكا.. فهى مدينة كل الأعراق.. وفى «برودواى» أشهر كيلومتر وثلث كيلومتر ترفيهى فى العالم.. تجد فنونهم وفنانيهم وتاريخهم وثقافتهم.. وعلى نواصى وتقاطعات الطرقات فى الشارع.. تجد من يبيعون أشياءهم التراثية.. وأكثرها شهرة ولا يعرف الكثيرون أنها من تراث الهنود الحمر.. «مصيدة الأحلام».. تلك التى يضعونها معلقة أعلى أسرتهم وأماكن نومهم.. فهى تقوم – بحسب معتقدهم – باصطياد الأحلام الشريرة أو الكوابيس.. وهى طوق من الخشب المكسو بالقماش أو الجلد.. فى داخله شبكة من الخيوط بشكل مصيدة.. وعلى حواف الطوق يعلق بعض الريش.. العلامة المميزة للهندى الأحمر.. «مصيدة الأحلام» أعرفها جيدا منذ سنوات.. تلقيتها كهدية من صديق أمريكى.. البعض فى مصر يعلقها على مرآة سيارته! لكن فى أمريكا.. يدركون جيدا معانى مثل هذه الأشياء التراثية الخاصة بعرقيات بعينها.. فهذا هو التاريخ الذى لا يمكن إنكاره فى بلد الحرية!

5

فى الشارع الذى ينقسم الى ثلاثة أجزاء.. شهدت الاحتفال باليوم الوطنى لبورتريكو.. آخر الولايات المنضمة للفيدرالية الأمريكية.. فى الجزء الأسفل.. منطقة مبنى بلدية نيويورك.. التى تشهد المهرجانات والمواكب.. و لهذا سمى «شارع الأبطال».. احتفى فيه بقادة ومشاهير مثل: الجنرال دوغلاس ماكارثر، قائد القوات الاميركية التى هزمت اليابان، ونيل أرمسترونغ، أول انسان مشى على سطح القمر، والجنرال نورمان شوارتزكوف، قائد قوات تحرير الكويت.. وفى الجزء الأوسط.. قلب نيويورك.. وفيه «مادسون غاردنز».. وهو إستاد داخلى تقام فيه منافسات رياضية، ومهرجانات فنية، ومؤتمرات سياسية.. و «فيفت افنيو « شارع المحلات التجارية الراقية.. و «تايمز سكوير» حيث يقع مبنى جريدة «نيويورك تايمز» وتقام فيه احتفالات الكريسماس.. التى بدأت عام 1907.. حتى نهاية التسعينيات كان الشارع مقرا لبيوت الدعارة، والمسارح العارية، وأفلام الجنس، والمعروضات الخليعة، والمعارض الإباحية.. التى تم نقلها بعيدا.. كتب عنه «جيمس تروب» كتابه «ملعب الشيطان: قرن من الشهرة والمال» قال: «كل من يذهب الى برودواى، ويمثل فى مسرحياته، أو يغنى فى حفل غنائى، أو يعزف فى كونسيرت، أو يرقص فى عرض، يعتبر ذلك قمة حياته الفنية.. هنا رقص فريد استير، ومثل شارلى شابلن، وغنى ارفنغ برلين، قبل ثمانين سنة.. هنا أساس الحضارة المسرحية الأميركية».. أما الجزء الأعلى من الشارع.. والذى يخترق شمال المدينة.. ففيه منطقة حى «هارلم».. حى الزنوج وجامعة كولومبيا.. الأفقر نسبيا فى الشارع الطويل.. وفى نيويورك كلها.. فتلك المدينة الصاخبة المبهرة.. لديها الكثير من المشكلات.. أهمها

الفقر والجريمة والمخدرات والتفرقة العنصرية.. فيها وحدها نصف مدمنى المخدرات فى الولايات المتحدة.. وأربعة ملايين مواطن يعيشون على أعانات الضمان الاجتماعى.. نحو 65٪ من سكانها يسكنون فى شقق أو فنادق مؤجرة خلافا لغيرها من الولايات.. حيث تسكن غالبية الأسر فى منازل منفردة ومملوكة.. معظم منازلها قديمة بنيت قبل عام 1940 لذا فهى متهالكة..

6

لم يكن يخطر بخلدى وأنا أشاهد الانهيار التاريخى.. الذى بثته فى حينه كل الفضائيات تقريبا فى العالم عام 2001.. أننى سأقف فى مواجهة نفس المكان بعدها بحوالى 7 سنوات.. لأكون ضمن عشرات الزائرين يوميا.. شهودا على إعادة البناء فى نفس المكان.. لمبنيين آخرين.. يلحق بهما نصب تذكارى لضحايا الانهيار الثلاثة آلاف.. المبنيان لن يتجاوز ارتفاعهما ارتفاع باقى بنايات المنطقة.. والمفترض أن يكون العمل بهما قد شارف على الانتهاء الآن.. فى مواجهة منطقة البناء.. كان أحد المولات الكبيرة المنتشرة فى مانهاتن السفلى.. والذى يستخدمه الزائرون لمشاهدة سير البناء فى المنطقة.. عبر واجهة زجاجية عريضة.. شخصت أمامى فى أكوام الأسمنت.. وعشرات العمال والمهندسين.. وفى عرق العمل المتواصل.. وعقلية البناء.. تبنى رغم ألم الشعور بالتعرض للهدم.. لكنها عقلية تربت على البناء.. هنا كان مركز التجارة العالمى.. ببرجيه التوأمين.. مجمع يتكون من سبعة مبان.. صممه المهندس المعمارى الأمريكي يابانى الأصل «مينورو ياماساكى».. وقامت ببنائه إدارة موانىء نيويورك ونيوجيرسى.. على مساحة تتعدى المليون مترا مربعا.. الفكرة نبتت عام 1960.. فى رابطة منهاتن السفلى ورئيسها «ديفيد روكفلر» وبدعم قوى من شقيقه حاكم نيويورك «نيلسون روكفلر».. حكى لى بعض العمال.. أن تلك المنطقة ظلت لأشهر عديدة تكتظ بآلاف الورود

الملونة.. يلقيها المارة تحية للضحايا.. حكى لى كثيرا عن صدمة عميقة خلفها انهيار البرجين لدى كل الأمريكيين ومازالت.. رغم كل هذا البناء..

هذا العدد الضخم من السكان الذى تكون عبر قرون.. كان عماده الهجرة الوافدة المسترسلة.. فمن 200 ساكن عام 1626.. إلى ألف سنة 1656 بعد قدوم البريطانيين والألمان والاسكندنافيين.. ثم 6 آلاف معظمهم من البريطانيين عام 1800.. وبين عامى 1850 و 1860 توافد الألمان والإيرلنديون بأعداد كبيرة فتضاعف عدد السكان 10 مرات.. وبنهاية القرن التاسع عشر تضاعف العدد 3 مرات.. وعندما بدأ تطبيق قانون الحصص لصد الهجرة الوافدة فى عشرينيات القرن الماضى.. أقبل السود من جنوب الولايات المتحدة الأمريكية بأعداد غفيرة فبلغ العدد 2,5 مليون ساكن.. وفي سنة 1990 قدر عدد سكان نيويورك المولودين بالخارج بنسبة 30 ٪ نتيجة توافد اللاجئين من جنوب شرق آسيا والكاريبى وإفريقيا وأمريكا الجنوبية والوسطى منذ الستينيات.. كان ضحايا انهيار البرجين من كل هذه الأعراق.. ومن هنا كان توحدهم فى الشعور بالألم حتى وإن لم يكن بسبب موت أقارب!

7

المدينة التى تمتلك بمفردها أكثر من 21 ٪ من السوق البنكية العالمية.. ويتكون جهازها البنكى الأساسى من شركات 'شايز مانهاتن بنك' و'سيتى كورب' و'مورغان' و'بنكارس تروست'، ويضم أكثر من 445 بنكا.. توفر حوالى 105 ألف فرصة عمل بنكى بالأنشطة التجارية العالمية.. وهى أول مرجع فى العالم للتقييم بالبورصة.. بفضل مؤشر «الداوجونز» الصناعى.. ومؤشر «نازداك» الحديث.. وتؤمن بمفردها أربعة أخماس أنشطة البورصات الأمريكية.. وتجمع بالإضافة لهذا – كل شركات التأمين الأمريكية والعالمية..

تحظى بأحد أبرز موانىء العالم وثلاثة مطارات هى الأكثر ارتيادا.. لديها اتفاقات توأمة مع مدن: بكين القاهرة لندن طوكيو جوهانسبرج القدس مدريد بودابست روما والرياض.. تلك المدينة التى تبدو بلا قلب أو مشاعر.. تدرك جيدا قيمة تراث وحضارة الآخرين.. بل وتحتفى بها أيضا.. ففى وسط «نيويورك».. تعلو درجات السلم التى تقودك إلى البوابة العتيقة لمتحف «المتروبوليتان».. أشهر و أضخم متاحف العالم.. الذى يضم آثارا من جميع الحضارات.. افتتح عام 1872.. ويستقبل سنويا 4 ملايين زائر من كافة أنحاء العالم..

دخلت المتحف مندهشة من كل هذه الضخامة.. والنظام والنظافة.. وأمريكا نفسها ليس لديها آثار قديمة تهتم بعرضها على الزائرين؟! فى الداخل.. فى لوحة عرض لأماكن القاعات وأسمائها ومحتواها.. كانت أكبر القاعات تلك المخصصة للحضارة الفرعونية.. وقررت أن أبدأ بها..

قاعة زجاجية ضخمة مرتفعة السقف.. بميل يعكس أشعة الشمس إلى الداخل.. عدد كبير من القطع الفنية الصغيرة والكبيرة.. كل منها يحتضنه صندوق زجاجى فخم.. بعض القطع مكسورة أو غير كاملة.. بعضها إهداء من حكومات مصرية سابقة.. وبعضها حصلت عليه أمريكا من دول أوروبية كان فى حوزتها.. احتفاء غير عادى بالآثار الفرعونية.. لم أشهده فى مصر..

فى قاعات المتحف الأخرى.. قطع أثرية وفنية من حضارت شتى.. صينية وهندية.. وأزياء وملابس حربية وأسلحة من عصور مختلفة.. تحف وأثاث قصور حكام وأباطرة فى عصور قديمة.. فى بلدان عدة.. كل الذين تجولوا – وهذا ليس تحيزا – فى أروقة المتحف.. الذى يفتح أبوابه فى التاسعة صباحا.. ويغلقها فى الخامسة مساء.. يعلق فى ذاكرتهم وهم عند أبواب الخروج.. تلك القاعة الفرعونية بما تضم من آثار قديمة لا مثيل لها.. وتلك هى أيضا فلسفة البناء!

8

فلسفة وعاها الأمريكيون بعد سنوات طويلة من القتل والهدم.. ففى بعض المدارس تعلو الجدران صور لشخصيات تاريخية من قبائل للهنود الحمر.. وصورة لرجل أسود التقطت عام 1890.. كاشفا ظهره وعليه آثار الضرب بالسوط ليراها التلاميذ.. حتى يعى هؤلاء الصغار.. ما اقترفته عقلية الهدم سابقا.. وفى نيفادا حيث تعيش قبيلة «نافاهو «.. التى تملك لغة مكتوبة.. لها خط صورى.. ومعجم مفردات.. كان مازال التفكير هداما دمويا تجاه هؤلاء..

فى الحرب العالمية الثانية.. على ساحل المحيط الباسيفيكى.. كان الاشتباك الأمريكى اليابانى على أشده.. وكان اليابانيون يخترقون أى لغة مشفرة للأمريكيين.. بين الضباط فى الموقع والقيادة.. أى نظام رقمى أو ترتيبى أو اتفاق لغوى كان اليابانيون قادرين على حله.. وكانت تلك أزمة كبرى..

فى العامين الأخيرين للحرب تفتق ذهن الأمريكيين عن استخدام شباب «النافاهو».. وإدخالهم فى دورات تدريبية خاصة داخل وحدات المخابرات العسكرية.. باستخدام لغة «النافاهو « بمعجمها الكامل وبعد شهرين تم توزيعهم فى الميدان.. بين أفراد الوحدات الأمامية والوسطى والخلفية والقيادية.. جن جنون اليابانيين لأنهم كانوا يسمعون أصواتا لا يستطيعون حل شفرتها..

لكن كانت الخطة أن يكون كل جندى نافاهو برفقة ضابط أمريكى أبيض.. بحيث لو تم حصارهم أو سقطوا فى الأسر يقوم الضابط الأمريكى بقتل النافاهو حتى لا ينكشف أمر هذه الشفرة..

وبعدها بسنوات طويلة.. تغيرت العقلية إلى حد ما.. وصار الاعتراف بالهدم هو أقصر طرق البناء.. وتلك هى الدنيا!

الرابعة

بلتيمور

مدينة المال.. والقاعدة المركزية!

بدأ الأتوبيس الصغير الذى حملنا من واشنطن إلى «بلتيمور».. يقطع طريقا معبدا محاطا من الاتجاهين بأشجار ضخمة مورقة.. طريق يبدو بلا نهاية.. ونحن مستغرقون فى تفحص كل ما تمر به أعيننا من خلف النوافذ الصغيرة.. بعض الأمطار يكون مفيدا كثيرا لتحسين المشهد.. بينما امتد خيط الحديث فى داخل الأتوبيس عن الحياة فى «بلتيمور».. وارتفاع مستوى المعيشة.. «بلتيمور 20 كيلو «.. لافتة عبرناها فى الطريق إلى مدينة المال والأعمال والتجارة.. القابعة على الساحل الشرقى للولايات المتحدة الأمريكية.. فى ولاية ميريلاند..

1

فى عام 1952م افتتح فى بالتيمور جسر خليج «تشيسابيك».. يسمى الآن جسر «وليم بلين» الابن التذكارى.. وفى عام 1980 افتتح فى الميناء الداخلى لبالتيمور، سوق الميناء وهو مجمع تجارى ضخم.. أخذتنا أقدامنا ذهابا وإيابا

نتفقد أرجاء ذلك السوق.. محلات للملابس.. ولعب الأطفال.. مطاعم وكافيتيريات متعددة التصاميم والألوان والأطعمة.. الجولة لم تستغرق الكثير من الوقت فى الميناء الذى تطل عليه المدينة.. شحن وتفريغ وحركة سريعة دون ضجيج يذكر.. وفى الميناء.. الكثير من الكافتيريات والمقاهى والمطاعم.. اخترنا واحدا وجلسنا ننظر فى اتجاه البحر والطعام قبل استئناف المسير.

كنا جميعنا – صحبة تلك الرحلة – فى انتظار الموعد الذى جئنا لأجله من واشنطن.. دخول مقر القيادة المركزية للقوات الخاصة الأمريكية.. كان أمامنا من الوقت ساعتين.. أمضينا ساعة فى ضيافة إحدى الشركات الاقتصادية العاملة فى الميناء.. للتعرف على طبيعة العمل والقواعد الاقتصادية المنظمة للعمل.. ولأننى من الذين لا تستهويهم الموضوعات الاقتصادية.. فإن ذاكرتى سريعا ما تفقدها.. فلا يتبقى منها بعد مرور بضعة شهور.. سوى ملامح ضبابية لمن التقيتهم.. شاب أسمر متأنق.. سيدة شقراء باسمة.. من العاملين فى الشركة.. شرحا باستفاضة طبيعة العمل ودور كل منهم والشركات المنافسة لهم.. وبالطبع لم يبق فى الذاكرة من تلك المعلومات الكثير!!

بالتيمور من مراكز المال والصناعة والتجارة المهمة فى شرقى الولايات المتحدة.. وتقوم المنطقة بصناعة الرادار وغيره من الأجهزة الكهربائية.. وهو ميناء نشيط يموج بالحركة.. وتوجد المراكز الرئيسية لعدة جهات حكومية فى مناطق ميريلاند القريبة من العاصمة واشنطن.. وكثير من الشركات فى ميريلاند تقدم خدماتها للحكومة الفيدرالية.. والدجاج أهم منتجات المزارع فى ميريلاند، أما مصايد الأسماك للولاية فقد تخصصت فى صيد المحار.

الآن حان وقت الرحيل من «بلتيمور».. فبدأت الكاميرات تطلق «فلاشاتها» معلنة تسجيل اللحظة بتذكار فوتوغرافى من ميناء «بلتيمور».. ركبنا الأتوبيس المخصص لنقلنا إلى اللقاء الموعود.. استقر كل منا فى مكانه.. أخرجت المطبوعات الخاصة بولاية «ميريلاند» أحاول بها قتل الوقت..

2

«ميريلاند» عاصمتها أنا بولسى.. اكتسبت أهمية خاصة فى المجالات الصناعية والشحن بالسفن.. يبلغ عدد سكانها 5 مليون نسمة تقريبا.. محتلة الجانب الشمالى الشرقى من الولايات المتحدة الجنوبية.. وتبلغ مساحتها 27 الف كيلو متر مربع تقريبا.. تعد ميناء عالميا وأكبر مدن الولاية.. أما أنابولس عاصمة الولاية، فهى مقر الأكاديمية البحرية للولايات المتحدة الأمريكية.. سميت ميريلاند بولاية «الصف القديم».. فى إشارة إلى الحشود المنتظمة التى حاربت أثناء الثورة الأمريكية (1775 – 1783).. حتى أن العاصمة واشنطن نفسها أقيمت على أرض منحتها «ميريلاند» إلى الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة الأمريكية عام 1791

يقسم خليج «تشيسابيك» معظم «ميريلاند» إلى قسمين: الساحل الشرقى، والساحل الغربى.. ويغطى السهل الساحلى الأطلسى جميع الساحل الشرقى وجزءا من الساحل الغربى.. وتمتد جبال وأودية منطقة بيدمونت غربا من الساحل لتقابل وسط سلسلة جبال ميريلاند الزرقاء.. حيث يقع شريط ضيق من منطقة سلسلة جبال الأبلاش ووادياها غرب سلسلة الجبال الزرقاء.. بينما

تمتد مزارع أشجار الفاكهة والحقول فى الجزء الذى يقع فى وادى هاجرستاون.. وتحتل هضبة الأبلاش الحافة الغربية لميريلاند.

وفى معظم الولايات الأمريكية.. بينما اعتقد المهاجرون أن أقدامهم تطأ أرضا جديدة.. كان هناك كل الدلائل التى تؤكد أن لتلك الأرض مواطنين عاشوا فيها واستوطنوها من قبل.. ففى «ميريلاند» عاش الهنود «الجونكويان» و «السوسكهانوك» قبل أن يصل الأوروبيون إلى المنطقة.. وقد أسس «وليم كلايبورن» الفرجينى.. أول مستوطنة استعمارية عام 1631م، وذلك على جزيرة كنت.. وفى عام 1632م وهب الملك «تشارلز» الأول المنطقة للورد «بالتيمور» الثانى.. وقد سميت ميريلاند على اسم زوجة الملك، الملكة «هنرييتا ماريا».. وفيما بعد أصبحت «ميريلاند» الولاية السابعة فى 28 إبريل عام 1788م.. وأثناء حرب عام 1812م.. ألهمت معركة بالتيمور «فرانسيس سكوت» كتابة نشيد العلم المرصع بالنجوم.. وهو ما أصبح فيما بعد النشيد الوطنى للولايات المتحدة.. وقد بقيت «ميريلاند» ضمن ولايات الاتحاد خلال الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865م)..

3

وصل الأتوبيس أخيرا.. ساحة كبيرة متسعة.. تفضى الى أسوار حجرية عالية.. تحمل كتابة بأحرف بارزة.. «القيادة المركزية للقوات الخاصة».. نزلنا من الاتوبيس ووقفنا أماكننا.. فقد كان فى انتظارنا 4 ضباط فى العمليات الخاصة الأمريكية.. قالوا بابتسامة هادئة: ممنوع الكاميرا.. ممنوع التليفون.. تركنا الكاميرات والتليفونات المحمولة فى الأتوبيس.. وذهبنا طائعين خلف

الضباط بزيهم العسكرى.. دلفنا من البوابة الإلكترونية.. بعد تفتيش دقيق.. مررنا فى بهو كبير حتى وصلنا إلى قاعة اجتماعات دائرية المقاعد.. وشاشات عملاقة مرتفعة على جدران القاعة.. مررت بعينى أتفحص الوجوه الكثيرة حولنا.. الكثير منها لشيوخ تخطوا عامهم السبعين.. لم يكن صعبا التيقن من أنهم ضباط متقاعدين.. وبعضهم لشباب بالزى العسكرى أو المدنى.. كانوا أكثر حميمية من مسئولين أمريكيين آخرين التقيتهم فى رحلتى تلك أو سابقتها.. بادرونا بالسؤال: تحبوا تشربوا ايه؟ ورغم أننا فى داخلنا جميعا كنا نعرف أننا سنجيب نفس الإجابة: قهوة.. إلا أن السؤال فى حد ذاته أمر مريح نفسيا.. يشعرك أنك ضيف أبناء العم سام!!

فى يد كل من كان فى القاعة نوتة صغيرة وقلم.. بدأت رحلة تعريف كل منا بنفسه.. لتبدأ معها رحلة الأقلام فى التدوين على الأوراق الصغيرة.. والحقيقة أننى من مجمل رحلات عمل مثل تلك الرحلة.. تعلمت أن تكون فى حقيبة يدى دائما نوتة صغيرة.. ثم حانت اللحظة.. كان أمام كل منا كوب من القهوة أو زجاجة مياه.. تم تخفيف الإضاءة فى القاعة.. وبدأت المقاعد كلها تستدير لتصبح فى مواجهة شاشات العرض المختلفة المثبتة عاليا على الجدران.. دارت ماكينة العرض فى الخلف.. وبدأ قائد ما برتبة عسكرية كبيرة – لا أتذكرها الآن – فى عرض ما لديه محللا ما تبثه لنا شاشات العرض.. مجمل ما قال من واقع الخرائط أمامنا.. كان عن تنظيم القاعدة وأماكن تمركزه.. وكانت تلك الأماكن مغطاة بدوائر سوداء.. فى باكستان وأفغانستان والعراق واليمن ولدهشتى فقد وجدتها فى مكانين فى مصر.. سيناء وصعيد مصر!!

استمعنا لمحاضرته حتى نهايتها ونحن ننظر إلى بعضنا البعض.. ختم الرجل محاضرته بأن ما عرضه هدفه التنبيه والتكاتف لمواجهة هذا الإرهاب.. بالطبع لم استطع الانتظار فطلبت الكلمة: هل بإمكانكم التفريق بين القاعدة وغيرها من حركات أم أن الجميع عندكم قاعدة؟ أجاب: بالطبع نستطيع التفريق بين الحركات المختلفة.. سألته: كيف تأكدتم من وجود قاعدة فى سيناء وجنوب مصر.. لم يجب الرجل وكنت متأكدة أنه لن يجيب.. ظل يشرح فى أشياء بعيدة كثيرا عن سؤالى.. ختمت فقلت له: أحب أن أقول أنه لا قاعدة فى مصر.. لأن القاعدة أفكار أكثر منها تنظيم مثل غيره.. وبمفهوم التنظيم الذى تتحدث عنه لا وجود لتنظيم القاعدة لا فى جنوب مصر ولا سيناء.. نظر لى الرجل مبتسما ولم يضف شيئا.. وسكت لأتيح المجال لغيرى من الزملاء.. كان هذا فى يوليو 2008.. لكنى عندما أفكر الآن فيما قال الرجل.. أجدنى أعكس المعادلة حتى تستقيم.. لماذا لا يكون الرجل يتحدث عن زرع القاعدة فى سيناء وصعيد مصر.. هذا يصبح أكثر منطقية!!

4

أما أكثر ما استفزنى فى ذلك اللقاء فقد كانت جملة قالها أحد المتقاعدين.. أن ما نشر عن تعذيب فى سجن «أبو غريب» أو ما شابه.. هو أمر فقط نقلته الصحافة العربية.. استفاض الرجل فى شرح ضرورة تحرى الدقة.. وأن الصحافة العربية تستهل فى نشر أشياء غير مدققة.. وأن الأمر جرى تهويله على نحو واسع.. هنا لم استطع أن أملك صمتا فرفعت يدى.. أشار الرجل

لى فقلت: هل ما تقوله سيدى أنه لم يحدث انتهاك فى سجن «أبو غريب»؟ رد الرجل متململا: لم أقل هذا.. لكنه لم يحدث كما نشرتم.. قلت: لم تنشر الصحافة العربية فى هذا الأمر سوى نقلا عن الصحافة الأمريكية.. هل ما تقوله سيدى أن الصحافة الأمريكية تكذب فى هذا الأمر؟ انبرى الرجل يتحدث عن تعقيدات الأمر.. وأن الصحف هدفها فقط أرقام التوزيع.. وأن نظرة الرجل العسكرى تختلف عن غيره.. وكثير من الثرثرة التى لم تجب عن شىء.. لكنها بالنسبة لى كانت إجابة شافية.. المسئول فى أى مكان يستطيع بمنتهى السهولة أن يتهم الصحافة بأى شىء.. أسهل كثيرا من أن يقول الحقيقة للمواطنين.. لذا فالصحافة القاسية مهمة جدا للمواطن.. مهما كان يحيا فى بلد متقدم يقول عن نفسه أنه ديمقراطى!!

بلغ إجمالى الناتج القومى لولاية ميريلاند عام 2003 مبلغ 213 مليار دولار، ويكون متوسط دخل الفرد سنويا» 39,247 دولار، أما نسبة البطالة فقد وصلت الى 4,3٪ وبلغ إنتاج قطاع الصناعة 13 مليار دولار والقطاع الحكومي 36 مليار دولار والصحة والرعاية الاجتماعية 16 مليار دولار وقطاع الخدمات 6 مليار دولار والإعلام 4,6 مليار دولار.. وتمثل الزراعة قطاعا» ثانويا» فى ولاية ميريلاند ولكن توجد منتجات زراعية مثل الذرة والقش والتبغ وفول الصويا وتشتهر ميريلاند أيضا بتربية الخيول..

الخامسة

«تامبا».. عروس فلوريدا

فى أقصى الجنوب الشرقى للولايات المتحدة الأمريكية.. تقع أقدم مستعمرة أوروبية.. لم تخل يوما من البشر.. تفوح منها دوما رائحة البرتقال لأنها تشتهر بزراعته.. «فلوريدا» التى اكتشفها الإسبانى «خوان بونسى دى ليون» سنة 1513 وأسماها بهذا الاسم.. وادعى ملكيتها لإسبانيا وظلت لفترة من الوقت ملكًا لإسبانيا وملكا لإنجلترا فى فترات أخرى.. حتى باعتها إسبانيا للولايات المتحدة عام 1819

1

«فلوريدا» بمناخها شبه الاستوائى الدافئ تقع بين خليج المكسيك والمحيط الأطلسى.. وهو ماعرضها مرات عدة لأعاصير قوية.. أشهر مدنها: أورلاندو مدينة الترفية الأولى فى الولايات المتحدة الأمريكية.. ميامى مدينة

ولكن يغلب عليها اللغة الإسبانية فى الشارع.. ديتونا بيتش وتعد من أجمل السواحل فى العالم.. جينسفيل، جاكسونفيل، تالاهاسى (العاصمة)، ميلبورن، سانت بيت، إضافة إلى شاطئ (ديتونا بيتش) المعروف على مستوى الدولة ككل بجماله.. تضم ولاية فلوريدا 67 مقاطعة.. مساحتها 170441 كيلو مترا مربعا تحتل المرتبة 22 من حيث المساحة فى الولايات الأمريكية الخمسين.. انضمت للاتحاد الفيدرالى عام 1845.. وبعد أقل من 40 عاما وبحلول عام 1880 كان التحول كبيرا فى تاريخ سكان هذه الولاية باكتشاف مخزون ضخم من الفوسفات فيها..

تعتبر ولاية فلوريدا من أكثر الولايات السياحية فى الولايات المتحدة.. بما تملكه من شواطئ خلابة مطلة على خليج المكسيك والمحيط الأطلسى.. فى «فلوريدا» زرت مدينة «تامبا».. وتلك حكاية كانت ممتعة بالنسبة لى.. فعندما وصلها المكتشفون الأسبان عام 1528 فوجئوا بأن الأرض التى هبطوا إليها لم تكن أرضا جديدة.. وأن هناك حضارة محلية قديمة كانت مزدهرة قبل أكثر من 3500 عام.. حيث عاشت «كالوسا» إحدى قبائل الهنود الحمر وكانت تتحدث لغة تسمى «تانبا» ومعناها عود النار.. وربما تشير إلى ألسنة الصاعقة التى كانت تضرب المدينة من وقت لآخر.. ثم تم تحريفها فيما بعد إلى «تامبا».. وهى ثالث أكبر مدينة من حيث عدد السكان فى «فلوريدا».. وتدار من قبل حكومة غير حزبية تتألف من مجلس ورئيس بلدية.. أبرز صحفها اليومية «تامبا تريبيون تايمز».

2

«ريتشارد لوبو « أحد هؤلاء الذين ينتمون لفلوريدا من الجذور.. عمره 72 عاما.. عائلته قدمت إلى تامبا.. مهاجرة من كوبا عام 1840.. كانت تعمل فى صناعة السيجار.. وظلت هكذا حتى 100 عام مضت.. عمل بمصانعها الكثير من الناطقين بالأسبانية.. قضى طفولته بين تامبا و نيويورك.. حتى المرحلة الثانوية.. ثم عاد لفلوريدا مرة أخرى دارسا الصحافة بجامعة ميامى.. وفى عام 1957 بدأ العمل بالصحافة التليفزيونية مراسلا يغطى الأخبار المحلية وهو بعد طالب بالجامعة.. كان التليفزيون فى بدايته.. وفى عام 1959 كانت بداية الدوامات السياسية فى أمريكا اللاتينية باندلاع الثورة الكوبية ولقدرته فى اللغة الأسبانية وكان هذه نادرا وقتها فقد سافر مراسلا لميامى لتغطيتها.. ثم انتقل متابعا الكثير من الأحداث فى: بورتريكو وكوبا والبحر الكاريبى.. التقى الكثير من القادة.. وفى نيويورك أكبر مدينة فى سوق التليفزيون انتقل مراسلا لمحطة سى بى اس فقام بتغطية الكثير من الأحداث السياسية.. الكفاح ضد العنصرية والحقوق المدنية.. وحرب فيتنام.. ووسط هذه الأحداث الساخنة المتلاحقة.. قابل «روبرت كينيدى» و «مالكوم إكس» وفريق الخنافس.. كان شاهدا على اغتيال الرئيس «كينيدى» فى فترة كان فيها الكثير من التلاطمات ساعدت على أكبر تحول شخصى له.. حاور مارتن «لوثر كينج» بعد حصوله على جائزة نوبل للسلام فى إحدى الكنائس عائدا من الرحلة.. ثم أصبح مديرا لأحد أقسام المحطة.. ثم انتقل إلى محطة ان بى آى فقضى فيها 25 عاما فى مناصب إدارية.. فى التسعينيات قرر ترك العمل التجارى مديرا لإذاعة

صوت أمريكا التى تبث إلى كوبا.. الإدارة الأمريكية اعتقدت أنه الأنسب لهذا بسبب خلفيته الكوبية واتقانه اللغة وتاريخه فى الصحافة.. وهو كان راغبا فى تجربة مختلفة.. عمل فيها مدة عامين.. ثم عاد مرة أخرى لفلوريدا شبه متقاعد يدير مع زوجته مكتبة ويمارس القراءة.. ومنذ 6 سنوات كانت هذه المحطة تبحث عن رئيس لها فأجروا معه مقابلة بدأ بعدها العمل وتسلم منصبه.. 50 عاما من عمره المهنى فى أماكن متعددة فى كليفلاند وشيكاغو.. ثم انتهي فى ميامى مديرا عاما فى نفس المحطة التى بدأ فيها تلميذا.. محطة WEDU هى إحدى المحطات الشعبية التى يرتكز عليها الإعلام الأمريكى.. وهو نوع من المحطات لا نعرفه فى منطقة الشرق الأوسط.

3

قال لى «لوبو»: كان لدى معلومات سطحية عن هذا النوع من المحطات الشعبية.. أعلم جيدا عن المحطات التجارية وتفاصيل عملها لأنى قضيت بها عمرا طويلا.. الفارق كبير بينها وبين المحطات التجارية لأنها لا تخضع لهذا النوع من التنافسات الدعائية.. ولا تعمل لجنى الأرباح مثلها.. نعم تعمل على توفير قدر معين من المال لتمويل عملها لكن لا يهمها جنى 20 أو 30٪ من الربح شأن المحطات التجارية.. هذا النوع من المحطات هو عصب الإعلام الحقيقى لأنه لا يحتكم لمصالح أو ضغوط مادية أو سياسية.. ولا يستجيب لأى تحالفات.. هو إعلام للمواطن فقط.

محطة WEDU التى تجولت داخلها.. فجلست على كرسى المذيع فى الاستديو الصغير بها.. مجهز تجهيزا تقنيا عاليا رغم صغر مساحته.. ودخلت

غرفة التحكم «الكنترول روم».. وتحدثت مع المعدين والصحفيين فى غرفة الإعداد أو الأخبار «النيوز روم».. العاملون كلهم من أهل «تامبا».. والأخبار محلية أيضا كلها عما يهم المواطن فى «تامبا».. كان الاستديو مجهزًا لعدة أغراض.. قراة نشرة أخبار.. أوبرنامج جماهيرى يستوعب عددًا لا بأس به من الحضور.. أو أى برناج عادى.. تلك المحطة التليفزيونية عمرها 50 عاما ملاكها 35 مواطنا غير متخصصين فى الإعلام.. وهى غير حكومية بالطبع.. يتبرعون بوقتهم للعمل فى مجلس إدارتها.. تبث 24 ساعة يوميا 7 أيام فى الأسبوع.. لديها 4 قنوات ديجيتال وقناة واحدة أنالوج.. ميزانيتها 4 مليون دولار سنويا.. تتلقى ٪7 فقط من تمويلها من الحكومة الفيدرالية و8 ٪ من حكومة ولاية فلوريدا.. و85 ٪ تأتى من المتبرعين والمواطنين فى فلوريدا.

4

ولاية فلوريدا مهمة ليس فقط لأنها رابع ولاية فى أمريكا من حيث عدد السكان.. ولا لأنها مقر قيادة العمليات الخاصة للقوات الأمريكية.. ولا لأن بها متحف سلفادور دالى الذى يضم أعمال الفنان الأسبانى السريالى العالمى.. المتحف هو الوحيد الذى يضم 8 لوحات أصلية من أعمال الفنان.. ولا لأن بها أيضا مركز كندى الفضائى الذي استخدمته وكالة ناسا لإطلاق عدد كبير من مركباتها الفضائية.. ولكن لأنها تمثل حالة خاصة ضمن الولايات الأمريكية الخمسين.. ففيها مدينة سانت أوجسطين أقدم مستعمرة أوروبية فى أمريكا.. تشتهر بزراعة البرتقال.

تخدم المحطة 16 مقاطعة فى وسط غرب فلوريدا.. وتترجم احتياجات المواطنين المحليين فى مجالات: التعليم والثقافة والصحة والمعلومات لتحقيق

مهمة التواصل بين كل فئات المجتمع.. تتعاون مع شبكة «بى بى إس».. وهى شبكة تضم عضوية 346 محطة غير تجارية تقدم خدمة إعلامية لمختلف مناطق الولايات المتحدة الأمريكية.. «بى بى إس» لا تنتج برامج لكنها تقوم بتوزيع برامج يتم إنتاجها من قبل أعضائها من المحطات والشبكات والمنتجين المستقلين من مختلف أنحاء العالم.. فى هذا النوع من المحطات الشعبية يكون الأصل دائما هو المواطن البسيط.. ويعترف «لوبو « بأن أكبر متع حياته فى هذه المرحلة هو إجراء المقابلات التليفزيونية مع هؤلاء البسطاء.. يضيف متجولا ببصره فى أرجاء الاستديو الصغير: نستخدم هذه القاعة 3 مرات فى السنة لجمع الأموال.. نقدم فيها برنامج يحث الناس على التبرع للمحطة.. يقدم البرنامج رقم تليفون للراغب فى الاتصال.. ورقم حساب للراغب فى التبرع.. وعن طريق هذا البرنامج تأتينا ٪30 من ٪85 من ميزانية المحطة.. كل هذا التنوع يوفر المال اللازم الذى نحتاجه لكى نبث.. ال٪45 الأخرى تأتينا من المؤسسات العملاقة لأننا نغطى قضايا الصحة فى برامجنا حيث تتولى مقدمته الاتصال بالمتبرعين على الهواء فتتلقى مبالغ كبيرة.. والقليل من الدولارات التى يتبرع بها أطفال من مصروفهم الشخصى وهذا مهم جدا فهم يعتبرونها محطة خاصة بهم.. وهناك مجموعة فخرية للمحطة كلما زاد مبلغ التبرع نضم المتبرع لهذه المجموعة الفخرية.. ثم نمنحه هدايا رمزية.. وهناك من يتركون لنا أموالا بعد وفاتهم ممن كانوا يتابعون المحطة وتعجبهم.. ومؤخرا توفيت إحدى السيدات تاركة فى وصيتها مبلغ 2 مليون دولار نصفها باسم المحطة ونصفها باسم المكتبة المركزية للمدينة.. لم نكن نعرف هذه السيدة لكنها كتبت فى وصيتها أنها من المتابعات لنا.. وكما نحصل على 3 ملايين دولار تقريبا من المشاركة بالتليفون.. نستفيد من استديوهاتنا أيضا بتأجيرها لشركات أخرى.. شركات دعاية وإعلان مثلا.

5

عام 1992 ضربها إعصار أندرو وكانت كارثة كبرى وقتها.. قام موظفو هذه المحطة بتغطية متميزة لهذه الأحداث.. ولكنهم أيضا أنقذوا الكثير من الأرواح بالإبلاغ المبكر عن هذه المأساة.. وهنا يكون الفرق بين المحطات التجارية التى يشكل الإعلان العمود الفقرى لعملها.. وهذا لا ينفى إجادتها فى تقديم المادة الإعلامية.. وبين محطات الشعب التى يكون الصالح العام والهم العام للمنطقة التى تغطيها أول الأولويات بالنسبة لها..

يقول «لوبو « نحن ننتج برامج إخبارية اندماجية مع محطات أخرى مثل «سى ان ان».. نوفر وصلة بالكاميرا والاستديو فى شكل مداخلة معها وهذا يشكل مصدرًا آخر للمال بالنسبة لنا.. نقدم الإعلان والدعاية ولكن بشكل مختلف.. فالدعاية المقبولة بالنسبة لنا تكون لمتبرعين.. سوبر ماركت أو شركة مثلا لكننا لا نروج لمنتجاتها مثل المحطات التجارية.. نخير المتبرع إما بمقابلة معه.. أو الحديث عن تاريخ شركته وهو نوع من الدعاية المقبولة للقطاع الخاص للتشجيع على التبرع.. طريقتنا مختلفة فى تقديم المادة الإعلانية فلا نقوم أبدا بقطع المادة الفيلمية أو الدرامية لتقديم إعلان.. إما قبل أو بعد بدء بث المادة.. نضع هذا النوع من الدعاية المقبولة.. نختار الصيغ اللغوية التى نضعها ومنها نحصل على 2 مليون دولار تقريبا مما نحتاج..

6

الولايات المتحدة كلها ليس بها وكالة حكومية تقدم تليفزيون حكومى.. الشركات التجارية هى التى توفر الأخبار باستقلال عن الحكومة رغم أنها

تستقى أخبارها من الحكومة.. لكنها تتناول أخبارها بلا رقابة.. كلمة تليفزيون عمومى أو شعبى معناها أنه من المواطنين.. من الجمهور... رخصته التى يحصل عليها ليست لتحقيق أرباح ولكن لتقديم عمل وأخبار تهم الناس.. وطبقا لهذه الرخصة فهناك شروط للحصول على التمويل بالنسبة لها وللمحطات التجارية على حد سواء.. تحافظ على الاتصال الدائم بمراكز التفكير واستطلاعات الرأى.. هذه المحطة تحتل رقم 13 من حيث عدد البيوت التى نصل إليها فى مدينة «تامبا».. لذا يهتم بها دائما المرشحون لأى انتخابات..

تقدم القناة مادة تعليمية مركزة لتعليم الأطفال.. تخصص لها ثلث ساعات البث.. مركزة على مرحلة ماقبل الدراسة.. من 2 وحتى 6 سنوات.. كما تهتم فى برامجها بالجانب التاريخى.. والعلوم العامة والطبيعة.. والأوبرا والموسيقى.. المسرحيات العالمية.. وهى مواد لا تقدمها المحطات التجارية.. التى جربت فى البداية تقديم هذا اللون من البرامج لكنها فشلت فى النهاية لأن هذه الرسالة مختلفة عن الهدف الذى خرجت هذه المحطات من أجله.. جمهورها بالمقارنة بالمحطات التجارية مازال صغيرا.. حتى بالمقارنة بالمحطات المشابهة مثل «البى بى سى» التى لديها 77 محطة وتغطى 95٪ من مساحة الوطن إضافة للخارج.. أما هذه المحطة فتغطى 300 مليون شخص تقريبا.. يصلهم البث إما عن طريق الكابل أو الستاليت أو القابس وهو نوع من التكنولوجيا الحديثة بالكابلات الضوئية تستطيع الوصول إلى 16 مقاطعة مجاورة لها..

يقول: فى كل عام نفكر أننا سنبدأ هذا العام من الصفر بلا موارد.. لقناعتنا بأن مواردنا لن تكون ثابتة أو مؤكدة فى كل عام.. نعمل على أرضية أننا قد لا نتلقى أى أموال على الإطلاق طوال العام.. حتى ما يأتينا من الحكومة الفيدرالية أو حكومة الولاية ليس ثابتا بل ينخفض من عام لآخر.. لا نعتمد على الاقتصاد لأنه يعانى عاما بعد آخر.. نعتمد على تأثير ما نقدمه من مضمون

فى المواطن وبالتالى تفاعله معنا وتبرعه لنا.. ولكن فى النهاية ليس هناك أى عنصر يمكننا الاعتماد عليه بشكل دائم.. نعمل باجتهاد للحصول على التمويل الذى حصلنا عليه فى العام السابق ولكن دون أية ضمانات.. الحالة الاقتصادية العامة تنعكس علينا كمحطة.. لدينا قصور فى بعض الإيرادات نتج عنه قيامنا بتقليص بعض المصروفات مثل السفر.

7

مبنى المحطة الذى بنته حكومة الولاية على أرض الدولة.. يضم داخله أكبر استديو فى المنطقة.. هذا الاستديو ليست به قطعة ديكور ثابتة لأى برنامج.. يتم يوميا تغيير الديكور فى المساء استعدادا لليوم التالى.. هذا الاستديو يستخدم فى كل شى بما فيه المناظرات السياسية بين السيناتورز وحكام الولايات فى أوقات الانتخابات.. ملحق به ورشة لتصنيع الأخشاب لإعداد كل ما يحتاجه التصوير والديكورات.. كل النباتات والاكسسوارات والدهانات وكل شى.. وأحيانا كثيرة يتبرع مواطنو الولاية من المتخصصين فى هذه الأمور بجهدهم أو وقتهم لتنفيذ هذه الأشياء.. هذا الاستديو قاعة كبيرة بحجم صالة تحرير جريدة الأهرام.. الفارق أن كل ركن فيه تم استثماره والاستفادة منه للدرجة القصوى.. ملحق بالاستديو 3 قاعات للمونتاج.. كل منها تضم 3 أجهزة كومبيوتر متقدمة.. الحكومة الفيدرالية أجبرت المحطة على تحويل نظام العمل فيها من النظام القديم.. الأنالوج.. إلى النظام الحديث.. الرقمى أو الديجيتال.. لكن فى الواقع فالأمور يسير كمحطتين بالأسلوبين معا لا محطة واحدة.. تمهيدا للعمل الإجبارى بالنظام الرقمى.. لفت نظرى أحد الأجهزة منزويا فى ركن من أركان القاعة مكتوب عليه «مات فى 22 مايو 2006»..

يقول «لوبو»: قدمنا الكثير من البرامج عن العراق منذ 2003 وتعرضنا بسببها للانتقاد الشديد من الحكومة الأمريكية لأننا انتقدنا احتلال العراق.. أهم البرامج التى تناولت ذلك برنامج «خط التماس» و «ساعة أحداث» اللذين غطيا الأحداث هناك بشكل تحليلى.. فى أحد البرامج حاور المقدم جنديا عائدا من العراق قام بتغيير ديانته إلى البوذية وكان رافضا للحرب.. كما نقوم بتغطية متواصلة لأخبار العائدين من العراق من الجنود نعرض لرؤاهم وتحليلهم.. لكن يبقى من الصعب علينا دائما تغطية أحداث الشرق الأوسط لأننا فى الأساس محطة محلية.. قد لا يعنيها ما يحدث فى الجهة الأخرى من العالم.. لكننا نحرص على تقديمها فى شكل أخبار سريعة.. تقديمنا لأخبار الجنود فى أفغانستان والعراق من زاوية واحدة.. هى تغطية أخبار جنود الولاية إما قبل رحيلهم إلى مهماتهم أو بعد عودتهم.

8

أمضيت فى هذه المحطة التى يعمل بها أقل من 100 شخص حوالى ساعتين.. مساحتها لا تتجاوز مساحة نصف دور فى مبنى التليفزيون المصرى بماسبيرو.. الذى يعمل بطاقة تشغيل مايقرب من 40 ألف موظف خلاف المتعاونون من الخارج.. عندما مددت يدى مصافحة هذا الرجل الذى تنضح عينيه بالمهنة.. لم استطع السيطرة على الصورة التى احتلت ذاكرتى المرئية لكل جهلاء المهنة.. هؤلاء الذين كلما حادثت أحدهم فى المهنة باغتك بمصطلح سابق التجهيز.. «تاريخى لا يسمح لى» وعندما تحاول فك مفردات هذا الطلسم.. لا تجد سوى الحسرة.. فالرجل صاحب تاريخ حقيقى لأكثر من 50

عاما فى المهنة بحق.. شددت على يده مودعة وكأنما أعتذر عن مقارنة مجحفة.. حتى لو كانت تدور بينى وبين نفسى داخل عقلى!!

«تامبا» مقر لعدد من الفرق الرياضية.. إضافة إلى فريق الهوكى المنتمى إلى الاتحاد القومى للهوكى.. وتشمل هذه فريق «تامبا باى بوكانيرز» المنتمى إلى الاتحاد القومى لكرة القدم.. فريق «تامبا باى ستورم» المنتمى الى إتحاد أرينا لكرة القدم.. فريق «تامبا باي راوديز» المنتمى إلى اتحاد أميركا الشمالية لكرة القدم الدولية.. وفريق «رايز» الذى شاهدت مباراته مع فريق آخر – لا أذكره بالطبع – من مقصورة صاحب النادى!!

طبعا لم يكن يخطر ببالى حضور مباراة رياضية.. لاسيما تلك الأمريكية.. وبالطبع لم يكن يخطر ببالى مشاهدتها من مقصورة صاحب النادى.. اهتم الرجل بوجود مجموعة من الصحفيين العرب فى فلوريدا.. فقرر دعوتنا جميعا لحضور مباراة فريقه.. فى المقصورة دعينا للعشاء.. ومشروبات متنوعة.. وأهدانا الرجل طبقًا مغلفًا من القواقع والأشكال البحرية لفلوريدا.. مازلت احتفظ بها للآن.. ودار حديث طويل عن اللعبة الأحب عند الأمريكان.